الأمويون و العلمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م
ردمك 9- 233- 79 – 9947- 978 (ISBN)

اسم العمل: الأمويون و العلمانية
اسم المؤلف: يوسف حاجي
تصميم الغلاف: سيف الدين لغويل
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

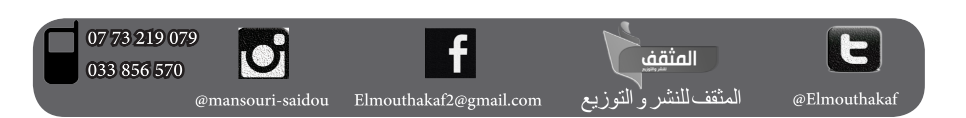
صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/el-mothakaf/
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 70 65 85 033 / 86 73 49 0675



المثقف للنشر والتوزيع



www.elmmothakef.com



« ليس خطابي في هذا الكتاب لجميع الناس، بل خطابي لرجل منهم يوازي ألوف الرجال، بل عشرات ألوف الرجال، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس، ولكن هو بأن يدركه الفاهم الفاضل »



ابن الهيثم



المقدمة

العلمانية، أنا لن أخوض معك في تعريفها وتفريعاته في المعاجم العربية والغربية، ولن أخوض معك في مبادئها، ولن أخوض معك في مظاهرها ، ولن أخوض معك في أسبابها ومسبباتها، ولن أخوض معك في عواقب تبنيها، ولن أخوض معك في حكم الشرع فيها، ولن أخوض معك في تفاصيل حياة منظريها، ولن أخوض معك في مجالاتها، ولن أخوض معك في عوامل التي ساعدت على انتقالها للعالم الإسلامي، وإنما الذي سأخوض فيه وأحاول تأصيله هو نشأتهاكيف نشأة وفي أي بيئة نشأة ومن هم أول من مارسها وماهي دواعي استعمالها

إذا عدت إلى كتاب: العلمانية لـ سفر الحولي، وكتاب المذاهب الفكرية المعاصرة لـ غالب بن علي عواجي، والعلمانية (مظاهرها وأسبابها ومبادئها) لـ أبو سفيان مصطفى باحو ، والعلمانية وثمارها الخبيثة لـ محمد شاكر الشريف، والعلمانية جذورها وأصولها لـ محمد علي البار، والمسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية لـ عذنان علي رضا النحوي، وجذور الفكر القومي والعلماني لـ عذنان محمد زرزور، وسقوط العلمانية لـ أنور الجندي، والعلمانية وموقف الإسلام منها لـحمود بن أحمد بن فرج الرحيلي...، وغيرهم من الكتاب والمفكرين والمنظرين ستجدهم يجمعون قولهم على أن العلمانية ظهرت ومُوريست في أوروبا تحت جملة من الأسباب لعل أبرزها سيطرة الكنيسة، كما أنهم يسرون على أن الغرب هو أول من ابتدع فكرة العلمانية، ومنذ تلك اللحظة وهو يعمل على تعميمها على العالم وأنه يستخدمها كوسيلة لمحاربة الدين الإسلامي ، مما جعل متبنيها محل شبهة خصوصا في تلك المجتمعات التي عرفت بتشددها؛ غير أن لنا نظرة فلا هي نظرة المعادي، ولا هي نظرة المؤيد وإنما نرجوا من الله التوفيق والسداد لتكون نظرة حق تميط اللثام عن الحقيقة التي ينشدها كل ذي عقل سليم.

هل فعلا ظهرت في القرون الوسطى ؟ وهل فعلا كانت أول بيئة تمارس فيها العلمانية هي أوروبا؟؟ ثم ألا يوجد للعلمانية أثر في موروثنا الإسلامي؟ ألم يلجأ خلفائنا المبجلون لسياسة فصل الدين عن الدولة لتثبيت أركان ملكهم؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنعمل جاهدين - بتوفيق من الله- للإجابة عليها في بحثنا هذا؛ غايتنا فيه إحقاق الحق لا شيئ سواه.

يوسف حاجي

15/03/2017

التمهيد

هي دولة اسلامية أموية قامت على خلفيات الصراع الذي رافق اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان كرم الله وجهه ، وما صاحب ذلك من تسنج بين العلوية والأموية، انتهى الأمر باستخلاف معاوية بن سفيان بعد حادثة التحكيم الشهيرة.

حكموا البلاد الاسلامية بحد السيف على مدار ألف شهر كاملة ،(تسعون سنة، أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما)، وأكثر خلفائها بلاء على المسلمين ثلاث، معاوية مؤسس الدولة، وعبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك، وفترات حكم الثلاثة هي الأطول في حياة الدولة،(60سنة). وأكثرهم حلما وعطفا و تطبيقا لمباديء الاسلام عمر بن عبد العزيز الذي لم تزد خلافته عن سنتين ونيف،امتدت فترة حكمهم من 41 إلى 132 هجرية ، وورثوا دولة شاسعة تم فتحها في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة.

وصلو الى منصب الخلافة عن طريق الدهاء السياسي، بعد حادثة التحكيم، وخالفو مبدأ الشورى في الحكم، فأسسوا دولة وراثية مسايرة لأنظمة الحكم عند الساسان والرومان، فأصبحوا أكاسرة العرب وقياصرتها. واستعان معاوية في وضع ركائز دولته على ثلاث دهات من دهات العرب: عمرو بن العاص صاحب فكرة رفع المصاحف والتحكيم في صفين، والتي انتهت بظفر معاوية بالسلطة، وولي كمكافأة له ولاية مصر طول العمر

وزياد بن أبيه (أخوه بالتبني) وسماه زياد بن أبي سفيان لما له من عبقرية ودهاء وحسن تدبر، واستعان به في حفظ فارس والعراق، والمغيرة بن شعبة وهو محرض معاوية على جعل الخلافة وراثية في أبنائه وهو أول راش في الاسلام، وقد استعان معاوية بالدهاء أحيانا والعطاء أخرى، مع الاغداق بسخاء على قادة الجند، ويتساهل في معاقبة عماله ويغضي عن سيئاتهم الأمويون في الحقيقة قدموا خدمة جليلة في عملية انتشار الاسلام، فقد زادوا من رقعة الدولة الاسلامية التي أصبحت تمتد من الأندلس مرورا بالمغرب ومصر والشام والعراق وأراضي ما وراء النهرين، كانت دولة عسكرية مستعدة للجهاد والفتح، وخلقوا دواوين جديدة استدعتها الظروف، وأنشأوا مدائن في البلاد المفتوحة، وشيدوا المسجد الأموي بدمشق، ووسعوا الحرمين المكي والمدني على يد عمر بن عبدالعزيز، وعربوا الدواوين في الأمصار وحافظوا على قوة الدولة، ويطلبون السلطة على أن لايشاركهم فيها أحد وكان عبد الملك بن مروان يقول:

(لا يجتمع فحلان في أجمة)، وبذلك كونوا ما يسمى بالدولة العربية الخالصة.

ماهو الوجه الخفي في سياسة بني أمية في تعاملهم مع الرعية، وهل بقي الشأن على ماكان عليه أيام الخلفاء الراشدين، من تسامح وعدل بين الرعية، وتوزيع مرض في العطاء والتكريم، والحرص على تطبيق تعليم الاسلام كما وردت في القرآن والسنة ؟

الأمويون سلكوا منهجا مغايرا في تعاملاتهم مع الرعية الاسلامية وأهل الذمة، وخالفوا المنهج الاسلامي الحق، باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز الذي يضم عهده الى عهد الخلفاء الراشدين لأنه سعى الى استعادة نهجهم في ادارة الدولة، غير أن حكمه لم يعمر طويلا، وأصدق القول أنني صدمت خلال تتبعي لسياسات الأمويين في تعاملهم مع الرعية في أوجهها المختلفة، والتي تمثل الحلقة الأوهن والسوداوية المطلقة في حكمهم ، وما الانتقادات اللاذعة التي وجهت لهم من القريب والبعيد، التي تزخر بها كتب التراث خاصة المعاصرة للحدث ككتاب الأغاني للأصفهاني، ومروج الذهب للمسعودي، وغيرهما، كابن الأثير، وياقوت الحموي والفخري ......إلا أصدق برهان على صدق القول ، كما أن المرأ قد يصاب باحباط نفسي جراء اطلاعة على مظالمهم وجبروتهم ، التي شملت الجوانب الدينية والاخلاقية والاقتصادية، وسناتي بنوع من الاختصار لأن الالمام بها وتحليلها يحتاج الى مجلدات ومصنفات. والغريب في الأمر أن بعضنا يرى جوانب القوة والعظمة العربية في عهدهم، دون التفكير في الاساءات التي سببوها للاسلام والمسلمين، إما لجهل أو لهوى في النفس وبذلك يمكن القول بأن دولتهم لم تكن دولة اسلامية بالمعنى الصحيح، بقدر ماكانت دولة دنيوية (علمانية).

فهم اغتصبوا الحكم بغير بوجه حق من أصحابه الشرعيين العلويين، وأسسوا لحكم وراثي مغاير لما يدعوا اليه الاسلام (وأمرهم شورى بينهم) وأستعملوا الشدة والقسوة والجبروت في اسكات المعارضين لهم. وأحيوا العصبية التي حاربها الاسلام، وبذروا الأموال، واستخفوا بالدين، وداسوا المقدسات، وخلقوا أمة من المنبوذين المشكلة من الموالى والعبيد والارقاء، وجاروا على أهل الذمة ونكثوا العهود.

أولا العصبية عند الأمويين:

تجمع الدراسات المنصفة على أن الأمويين فتحوا شقا فسيحا في التراجع عن مباديء الاسلام التي وردت في القرآن، فأصبح العمل بالآية الكريمة (ان أكرمكم أتقاكم) مستبعدا، وأنقلبت الآية ألى (إن أكرمكم أعربكم)، وارتدوا الى حال جاهليتهم، وحافظوا على مقتضيات البدواة، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم، وخلقوا عصبيتان عصبية داخلية فيما بين العرب أنفسهم، وأخرى موجهة ضد المسلمين من غير العرب (الموالي). وهذا ما أدى الى تأجيج الخلاف وخلق الفكر الشعوبي عند الموالي الذي أمتد أزمانا وما زلنا نجني ثماره الى الآن. فهم حقا من المؤسسين للفكر الشعوبي لمخالفتهم شرائع الله في الأمر.وما المد الشعوبي إلا ردة فعل عن طغيانهم التعصبي. وكان الأجدر بهم أن يكونوا صارمين صادقين في تطبيق أوامر الله وتشريعاته لأنهم أقرب لعهد الرسول الكريم ومعايشين لنهج خلفائه، لخلق قدوة ونموذج يحتذى به في التسامح والايثار والأثرة، لكنهم لم يكونوا أهلا لذلك وفتحوا جبهة للتمرد والعصيان والتفكير في اقامة دول كما هو الشأن عند العلويين والشيعة والخوارج، فعمت النقمة واشتد وطيس التمذهب وظهور النحل. وهما ما عجل بسقوط دولتهم على يد الموالي سنة 132 هجرية.

ثانيا: تبديد وتبذير للمال العام:

المنح والعطاء من الأساليب التي ابتدعها الأمويون في شراء الذمم والتكثير من المؤيدين والمناصرين لكسر شوكة أعدائهم المتكاثرين، وهذا العطاء لم تسن له قواعد ضابطة تخدم الاسلام، وانما وضفت لأغراض سياسية وسلطوية، فكان المنح مخصوصا للعرب خاصة الذين شهدوا المواقع الهامة كصفين فان معاوية زاد عطاء أصحابها،وفرضوا الأعطية للشعراء التماسا لقطع ألسنتهم أو للتقرب من قلوب الناس، وكان الوارعون وأهل التقوى يستنكرون ذلك، ويرون فيه اجحافا في حق بيت المال، وقال عبد الملك بن مروان (انعم الناس عيشا من له ما يكفيه، وزوجة ترضيه ، ولا يعرف أبوابنا الخبيثة فنؤذيه). وهذا السخاء الأموي يقابله شح من نظرائهم أهل البيت اما عن امساك أو ورع حتى قيل (ما رؤي في الناس أبخل من أهل البيت ولا من عبد الله بن الزبير).

وكان هذا الامساك سببا من أسباب فشلهم وانحيازالناس الى بني أمية. هذا الأسلوب الأموي في التعامل بالمال العام يخالف السالف الصالح من الخلفاء الراشدين، ان مال الخزينة يعد مالا للمسلمين ، وليس مالا للحكام، ويصرف بتدبر وحكمة. وسلط الأمويون عمالهم الأشداء الذين لا يبالون بالدين وأحكامه في سبيل تحقيق أغراضهم في ابتزاز الأموال من البلاد المفتوحة بشتى الأساليب أمثال ابن الحبحاب في بلاد المغرب، والحجاج في العراق، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم وأهم الأبواب التي تجمع فيها الأموال في عهدهم هي الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور، وكانت الجزية هي الأساس في الجباية لتكاثر أهل الذمة أيام الفتح، وعندما دخلوا الاسلام، شحت المداخيل، غير ان اسلامهم لم ينجيهم، اذ طالبوهم بدفعها ولو بعد اسلامهم، واول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف وإذا شح المال بسبب الاسراف فانهم يلتجئون الى بيع الولايات بالرشوة خاصة في أيام ضعفهم وفساد دولتهم .

ثالثا: استخفافهم بالدين واستهانتهم بالمقدسات:

كان بنو أمية يدركون أحقية العلويين في الخلا فة، وأكثر الفقهاءفي زمانهم يقرون بأحقية ذرية علي في الحكم ، لكن العصبية كانت معهم والقوة الغالبة الى جانبهم، وكان الخلفاء يقطعون ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم، فتعودوا على ذلك وبالغوا فيه حتى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف، فلما قدم الى المدينة وفيها أنصار اهل البيت خطب فيهم

قائلا:

أما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد). ألا واني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل اعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لايأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه) وكان شديدا مهاب الجانب يجاهر بالقوة والسيف، ولو فيما يتعارض مع الدين ولعله مطابقا لعامله الحجاج في الاستهانة بالدين، يروى أنه عند ما جاءوا له بخبر الخلافة كان قاعد اوالمصحف في حجره فاطبقه وقال: (هذا آخر العهد بك) أو(هذا فراق بيني وبينك)هذا الاستخفاف العقيدي ولد لدى الأمويين تجاوزات خطيرة في حق أقدس المقدسات، ولا عجب أن يكلف الخليفة اشد عماله بطشا وجرما

الحجاج بن يوسف بضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير على عتباتها، واجتزاز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة وقتلوا الناس فيها ثلاثا رغم حرمة المكان وقداسته، وهدموا الكعبة وأوقدوا النار بين احجارها وأستارها ودخلوا مدينة الرسول الأكرم وسفكوا دماء أهلها، وكان(جندهم) الأقباط والأنباط يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهن.

وقتلوا من الصحابة والتابعين المعارضين لهم خلقا كثيرا، وأمروا بلعن علي على المنابر، ومن لم يلعنه من العامة قتلوه، وأطلق الحجاج اسم (خليفة الله)على عبد الملك) وعظم شأن الخلافة وفضلها على النبوة، وبلغ الاستهتاربهم حتى جعلوا هشاما خير من النبي ولاعجب بعد ذلك أن يقدم سكيرهم (الوليد بن يزيد) على رمي القرآن (المصحف) بالنشاب وهو في مجونه وسكره. منشدا ومخاطبا للقرآن :

اذا لا قيت ربك يوم حشر فقل لله مز قني الوليد

رابعا: يشاع عن الأمويين أنهم أهل تجبر وقتل ودموية، وأن دولتهم دولة قوة وسيف وغطرسة ، أكثر منها دولة تسامح واسلام.هل يحق لنا وصفهم بذلك ؟

هذا الوصف ليس مطلقا على الجميع، فعهد عمر بن عبد العزيز وان كان زمنا قصيرا يمثل أروع مثال للدولة الاسلامية، أما ماعدا ذلك، فالأوصاف المرصدة صحيحة وتمثل جبلة في عقليتهم وارتداد كليا عن التعاليم الاسلامية السمحة في التعامل مع الرعية مؤمنهم ومسلمهم، أحرارهم ومواليهم، فلا شأوى لهم سوى التعصب لقومهم، وقد أوردت المصادر المعاصرة لحكمهم ما لايقبله المنطق ولا يتصوره العقل في الاهانة للبشر زجرا وقتلا وتحقيرا وذما وتمثيلا بالجثث ..... ومال لايقال كثير. فهم بارعون في تطبيق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

ولا غرو أن بأسهم شديد على معارضيهم، و من باب الزجر والترهيب يلجأون الى قطع الرؤوس ويطوفون بها من بلد الى بلد، يصلبون الجثث حيث تكثر الحركة، (من أجل ترهيب الناس ليذعنوا لسلطانهم)، وأول رأس طافوا به رأس عمر بن الحمق الخزاعي وتوالت العملية، رأس الحسين بن علي أرسل من قبل ابن زياد الى الخليفة يزيد بن معاوية، ونفس الشيء فعله الحجاج برأس ابن الزبير ورؤوس أصحابه، أرسلها من مكة الى الخليفة عبد الملك بن مروان في الشام، وأصبح التمثيل والتشنيع بالموتى سلوكا وممارسة في معالجة مشاكلهم، وتروي المصادر عن وجود خزانة للرؤس الآدمية في بلاطهم. يحفظون كل رأس في سفط خاص ولم يسلم بن بطشهم وجبروتهم حتى الأطفال مثل مافعله بسربن أرطأة في اليمن.

خامسا: مـن نتائـج الفتـح الاسـلامي القريبـة اتسـاع الرقعـة الجغرافيـة، وازديادعـدد المسـلمين، كيـف كانـت سياسـة تعامـل الدولـة مـع هـذه الأقـوام التـي وصلوهـا؟

تعامـل الأمويـين مـع أهـالي البـلاد المفتوحـة فـاق في قسـوته مـا كان في بـلاد العـرب، خاصـة بعـد تكاثـر المـوالي(المـوالاة)، وازديـاد الرقيـق بلونيـه الأبيـض والأسـود (بالهـدي والأسر) وازداد عددهـم زيـادة كبـيرة، واسـتخدمهم العـرب في مجـالات مختلفـة ، واسـتعملوهم في الحـرب والفتـح، وقـد تجـاوزت أعداددهـم عـدد الأحـرار أحيانـا، ومـع ذلـك كان بنـو أميـة يحتقرونهـم ويضطهدونهـم، وهـم يصبرون عـلى ذلـك أو يفـرون مـن سـلطانهم إلى أطـراف المملكـة، وممـن فـر مـن جـور بنـي أميـة ميمـون جـد ابراهيـم الموصـلي المغنـي المشـهور، وسـنو قوانـين عرفيـة منهـا منـع زواج المـوالي بالعربيـات وبالغـوا فيـه رغـم تعارضـه مـع الـشرع ، وأغدقـوا عـلى الشـعراء بالعطايـا لهجوهـم والتحقـير بهـم، ونظـرا لتضخـم هـذه الطبقـة فقـد سـن الأمويـون تصنيفـات وترتيبـات لهـم تحتـاج الى مبحـث منفصـل ،وأحيانـا يتكتـل المـوالي مـع المناوئـين للدولـة، مثـل ماحـدث في ثـورة المختـار بـن أبي عبيـد سـنة 66 هجريـة، التـي شـارك فيهـا خلـق كبـير مـن ألأعاجـم للمطالبـة بـدم الحسـين. وتشـير المراجـع المعتمـدة الى انتشـار ظاهـرة تبـادل الهدايـا بالمـوالي والغلـمان والجـواري ، فبالغـوا في وصفهـا والتباهـي بأعدادهـا خاصـة بعـد فتـوح افريقيـا، اذا تـرد الاحصائيـات أن عـدد المـوالي المهجريـن نحـو مراكـز الولايـات وبـلاط الخلفـاء كان بمـآت الآلاف ...

وأكـثر السـبي كان في بـلاد المغـرب والأندلـس، اذ كانـوا يباعـون بالجملـة، ومـن كثرتهـم، فقـد ظلـوا يبيعـون الأسرى مـدة سـتة أشـهر، وكانـت قيمـة العبـد تختلـف حسـب خصوصياتـه الجسـدية والمهاريـة، فالعبـد الـذي لا يعـرف صناعـة بيـع ب 100دينـار، والراعـي ب 200دينـار، وصانـع النيبـال ب 400دينـار، وقـارض الشـعر ب 600دينـار وكانـت القاعـدة المتداولـة أن البـلاد المفتوحـة عنـوة ملـكا للفاتحـين بمـا فبهـا مـن البـشر والـدواب والبسـاتين والأنهـار والأشـجار كـما أشـار الى ذلـك عمـر بـن العـاص (ان مـصر فتحـت عنـوة وأهلهـا عبيدنـا نديـر عليهـم كيـف شـئنا).

سادسا: كيف كان تعامل الأمويين مع أهل الذمة ؟

الا سـلام جـاء للنـاس كافـة، وكان التعامـل متميـزا بـين أهـل الكفـر، وأهـل الايمـان، وعومـل أهـل الذمـة في اطـار العقيـدة الاسـلامية في عهـد النبـي وخلفائـه الأربعـة، وكانـت القاعـدة تنحـو نحـو اقامـة العهـود معهـم كالعهـدة المحمديـة، كـما وردت اخبـار كثـيرة عـن اكتتـاب العهـود، منهـا عهـدة عمـر بـن الخطـاب مـع أهـالي الشـام التـي تناولهـا الدراسـون بالتحليـل والمناقشـة، وأكـثر مـواد هـذه العهـدة واردة في كتـب الفقـه، ومهـما يكـن فـان عهـد الرسـول وخلفائـه مـن بعـده اتسـمت بنـوع مـن التسـامح مـع أهـل الذمـة في الاحتفـاظ بمعتقدهـم وممارسـته وفـق شرط أسـاسي هـو دفـع الجزيـة مقابـل الدفـاع عنهـم.

أمـا بنـو أميـة فانهـم ضيقـوا عـلى الذميـين أشـد تضييـق، وزادوا مـن الجزيـة والخـراج وشـددوا في تحصيلهـما ،وأخـذوا الجزيـة حتـى فيمـن أسـلم ..؟ وكانـو يحتقرونهـم، ولا غرابـة في ذلـك مـادام التميـز قائمـا في سياسـتهم، فكانـت الطبقيـة جليـة (العـرب، المـوالي، أهـل الذمـة) وهـذا مـا يؤكـده قـول معاويـة في أهـل مـصر ...(وجـدت أهـل مـصر ثلاثـة أصنـاف، فثلـث نـاس، وثلـث يشـبه النـاس، وثلـث لا نـاس). الثلـث الأول هـم العـرب، والثـاني هـم المـوالي، والثلـث الأخـير هـم أقبـاط مـصر.

ان هـذه الصـورة المظلمـة في حيـاة الدولـة الأمويـة، صـورة تتكـرر مـع كثـير مـن الـدول التـي اعقبتها،(ومـا أشـبه اليـوم بالبارحـة)، واذا دونـا ماذكرنـاه مـن حقائـق عـلى لسـان مؤرخـي العـرب ليـس تشـنيعا أو شـنآنا بقـدر مـا هـو مـن أجـل الحقيقـة، وحتـى لاتتكـرر مـآسي المسـلمين، وليـس العيـب في سـقوطنا وانمـا العيـب البقـاء حيـث سـقطنا، و استنسـاخ الخطـأ والتـمادي فيـه. ومـن موقعنـا فـإن تجريـم الأفعـال أولى مـن تجريـم الأشـخاص.

ونافلـة القـول أن دولـة الأمويـين عظيمـة في فتوحاتهـا، قويـة بعسـاكرها، وضعـت الركائـز الأولى لسـيادة الحكـم العـربي، منهجهـا في الحكـم لم يكـن مسـايرا في كثـيره مـع تعاليـم الاسـلام،ولم تكـن في مسـتوى عظمتـة، الاسـلام الـذي تحـول عندهـم الى وسـيلة بعـد ان كان غايـة[1].

[1] الطيب آيت حمودة – الوجه المظلم في تاريخ بني أمية --

عبد الملك ابن مروان الفقيه الذي أفسدته السلطة

كيف غيرت السلطة من طبيعة عبد الملك ابن مروان؟ وماذا فعل بالمصحف حين تولى السلطة؟

هل نهى عبد الملك ابن مروان عن الأمر بالمعروف؟

هـو الخليفـة الأمـوى الخامـس صاحـب لقـب «أبـو الخلفـاء»، فقـد تـولى الخلافـة مـن بعـده أبنـاؤه الأربعـة، الوليـد وسـليمان ويزيـد وهشـام. والحقيقـة التـى لا يعرفهـا الكثـيرون أن عبـد الملـك كان مـن أشـهر الفقهـاء فى عـصره، يُذكـر فى ذلـك مـع ثلاثـة آخريـن سـعيد بـن المسـيب وعـروة بـن الزبـير وقبيصـة بـن ذؤيـب.

وكـما جـاء فى «البدايـة والنهايـة» لابـن كثـير، فقـد كان عبـد الملـك قبـل الخلافـة مـن العُبّـاد الزهـاد الفقهـاء الملازمـين للمسـجد التالـين للقـرآن، وفى «طبقـات ابـن سـعد» أن عبـد الملـك بـن مـروان قـد حفـظ عـن عثـمان وسـمع عـن أبي هريـرة وأبي سـعيد الخـدرى وجابـر بـن عبـد اللـه، وغيرهـم مـن أصحـاب رسـول اللـه «ص»، وكان عابـدًا ناسـكًا قبـل الخلافـة.

ويـروى ابـن سـعد أيضًـا عـن نافـع قولـه: لقـد رأيـت عبـد الملـك بـن مـروان ومـا بالمدينـة أشـد تشـميرًا ولا أطلـب للعلـم منـه، أحسـبه قـال: ولا أشـد اجتهـادًا.

وقـال الشـعبى: مـا جالسـت أحـدًا إلا وجـدت لى الفضـل عليـه إلا عبـد الملـك بـن مـروان، فإننـى مـا ذاكرتـه حديثًـا إلا زادنى فيـه ولا شـعرًا إلا زادنى فيـه.

أمـا بعـد الخلافـة فـكان التحـول الصـادم والكبـير، فظهـرت لعبـد الملـك شـخصية أخـرى وبـدت لـه نفسـية مغايـرة تمامًـا لمـا اشـتهر بـه مـن قبـل.. ففـى تاريـخ الخلفـاء للسـيوطى أنـه لمـا أفـضى أمـر الخلافـة إلى عبـد الملـك بـن مـروان كان المصحـف فى حجـره فأطبقـه وقـال: هـذا آخـر العهـد بـك.

ويـروى أنـه خطـب عبـد الملـك بـن مـروان بالمدينـة بعـد قتـل ابـن الزبـير عـام حـج سـنة خمـس وسـبعين، فقـال:

{أمـا بعـد، فلسـت بالخليفـة المسـتضعف -يعنـى عثـمان- ولا الخليفـة المداهـن -يعنـى معاوية- ولا الخليفـة المأفـون -يعنـى يزيـد- ألا وإن مـن كان قبـلى مـن الخلفـاء كانـوا يأكلـون ويطعمـون من هـذه الأمـوال.

ألا وإنى لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم.

تكلفوننـا أعـمال المهاجريـن ولا تعملـون مثـل أعمالهـم فلـن تـزدادوا إلا عقوبـة حتـى يحكـم السـيف بيننـا وبينكـم.

ألا وإنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوبا على أمير أو نصب راية والله لا يفعل أحد فعلة إلا جعلتها فى عنقه. والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه}.
ويروى أن عبد الملك كان إذا قعد للحكم خيّم على رأسه بالسيوف.
وقد يعجب الكثيرون لهذا التناقض، لكن الحقيقة والواقع أنه لا تناقض على الإطلاق فقد جاءت السلطة بسحرها وبريقها، ومعنى هذا أن عهد النسك والعبادة قد ولى.. ويؤكد ذلك ويثبته أنه وفى نفس المصدر للسيوطى وفى عام 75هـ، خطب عبد الملك على منبر الرسول فى المدينة بعد قتل عبد الله بن الزبير.
قائلا: {والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه}.
وبسبب هذه الكلمات وصفه الزهرى بأنه أول مَن نهى عن الأمر بالمعروف.
وأيضًا قد لا يعد كل ذلك مستغربًا حين نعلم أن ساعد عبد الملك الأيمن هو الحجاج بن يوسف الثقفى، أحد أشهر الطغاة فى التاريخ الإنسانى العام.. وقد عرف عبد الملك للحجاج مقدرته ومواهبه وأدرك أنه بالحجاج قد وطد دعائم الحكم وثبت أركان الخلافة، ولهذا فقد كانت وصيته الأخيرة لولده وولى عهده الوليد أن يحفظ للحاج صنيعه وأن يكرمه ويلزمه وزيرًا ومشيرًا.. وقد كان.
ولعل فى قصة عبد الملك مع التابعى الجليل والفقيه الأشهر سعيد بن المسيب، تجسيد حى ومباشر لهذا التحول الذى شهدته حياة الرجل الذى كان فقيها.
فلما أراد عبد الملك بن مروان أن يبايع لابنه الوليد سنة خمس وثمانين من الهجرة خطب له بنت سعيد بن المسيب، لما كان له من المنزلة بين الناس، فأراد أن يتخذ هذا وسيلة لترغيبهم فى ابنه الوليد، ورضاهم عن بيعته، لأنه إذا زوجه سعيد بنته وبايعه، بايعه الناس كلهم.. وهنا تظهر وتتجلى فكرة «نسب المصلحة» بمنتهى الوضوح.. وليس غريبًا ولا مستبعدًا أن يحاول خليفة مثل عبد الملك استغلالها والإفادة منها.
ولكن سعيدًا كان من العلماء الذين لا يعرفون إلا البيت والمسجد، وكان مبتعدًا عن بنى مروان لا يقربهم، ولا يتصل بهم، كما يتصل غيره من العلماء، لأنه يراهم أخذوا الحكم بالسيف، ولم يسلكوا إليه طريق الشورى التى سلكها الخلفاء الراشدون.
فلما خطب عبد الملك ابنته لابنه الوليد أبى أن يزوجها له، وآثر عليه أبا وداعة، وهو رجل من أصحابه لا يملك شيئًا.

فلما بلغ عبد الملك ذلك حقد على سعيد أشد الحقد، وأسخطه أن يؤثر عليه أبا وداعة أشد السخط، ثم مضى فى ما أراد من المبايعة لابنه.. ونحن هنا أمام تنويعة أخرى على «انتزاع معاوية البيعة لابنه يزيد»، فأرسل إلى أهل المدينة يأخذ منهم البيعة للوليد، ثم من بعده لابنه سليمان، ليكونا وليى عهد المسلمين، فبايع أهل المدينة كلهم، وأبى سعيد أن يبايع، وكان والى المدينة هشام ابن إسماعيل، فكتب إلى عبد الملك: {إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب إليه عبد الملك: أن اعرضه على السيف، فإن مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به فى أسواق المدينة}.
فلما قدم كتاب عبد الملك دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب، وقالوا: «جئناك فى أمر، قد قدم كتاب عبد الملك، إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثًا فأعطنا إحداهن، فإن الوالى قد قبل منك أن يُقرأ عليك، فلا تقل: لا، ولا نعم، فقال لهم: يقول الناس: بايع سعيد بن المسيب. ما أنا بفاعل -وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم- فقالوا له: {فتجلس فى بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أيامًا، فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك، فقال لهم: فأنا أسمع الأذان فوق أذنى: حى على الصلاة، حى على الصلاة، ما أنا بفاعل. فقالوا له: فانتقل من مجلسك إلى غيره، فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك}.
فقال لهم: {أخوفًا من مخلوق؟ ما أنا بمتقدم شبرًا ولا متأخرًا. فلما أبى عليهم ذلك كله خرجوا من عنده، وخرج بعدهم إلى صلاة الظهر، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه، فلما صلى الوالى بعث إليه فأتى به، فقال: «إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك}.
فقال سعيد: «نهى رسول الله عن بيعتين»، وقيل إنه أبى وقال: لا حتى أنظر. وقيل إنه قال: {لا أبايع وعبد الملك حى}
فلما أبى سعيد أن يبايع ضربه هشام ضربًا مبرحًا فى يوم بارد، وصب عليه الماء وطاف به وهو فى سروال صغير يستر عورته حتى بلغ رأس الثنية التى كانوا يقتلون ويصلبون عندها، ثم ردوه وحبسوه.

فقـال سـعيد: {لـو ظننـت أهـم لا يصلبوننـى مـا لبسـت ثيـاب مسـوح (جمـع مسـح وهـو الثيـاب الخشـن)، ولكنـى قلـت: إنهـم يصلبوننـى فيسـترنى.

وكانـوا قـد ردوه والنـاس منصرفـون مـن صـلاة العـصر، فقـال: إن هـذه الوجـوه مـا نظـرت إليهـا منـذ أربعـين سـنة}.

ثـم أخرجـوه مـن السـجن ومنعـوا النـاس أن يجالسـوه، فـكان مـن ورعـه إذا جـاء إليـه أحـد يقـول لـه: «قـم مـن عنـدى»، لأنـه يكـره أن يـضرب بسـببه.

وفى «البدايـة والنهايـة» لابـن كثـير: كان سـعيد لا يأخـذ العطـاء وكانـت لـه بضاعـة أربعمئـة دينـار، وكان يتاجـر فى الزيـت، وكان يقـول: اللهـم إنـك تعلـم أنى لم أمسـكه بخـلاً ولا حرصًـا عليـه ولا محبّـة للدنيـا ونيـل شـهواتها: وإنمـا أريـد أن أصـون بـه وجهـى عـن بنـى مـروان حتـى ألقـى اللـه فيحكـم فى وفيهـم.

ولا شـك أن مـا فعلـه عبـد الملـك بسـعيد بـن المسـيب شىء فى قمـة الوضاعـة، والغريـب أنهـا لم تكـن ضروريـة ولا مطلوبـة فى هـذا الظـرف، لأن البيعـة لا تكـون صحيحـة إلا عـن رضـا واختيـار، ولا يصـح أن يُقهـر أحـد عليهـا، لأنهـا إذا جـاءت بالقهـر تكـون باطلـة، ومـا كان لعبـد الملـك أن يتشـبث ببيعـة سـعيد إلى هـذا الحـد، لأن البيعـة تصـح باتفـاق أكـثر النـاس، ولا يجـب أن تكـون بإجـماع منهـم، وقـد كان سـعيد مـع هـذا مسـالمًا لبنـى مـروان، وليـس لهـم عليـه إلا أن يكـون مسـالمًا لهـم، أمـا رأيـه فيهـم فمـن حقـه وحـده.

ويبـدو أن عبـد الملـك -بمـا فيـه مـن خـير- قـد لام نفسـه وعنّفهـا فى اللحظـات الأخـيرة مـن حياتـه عـلى تحولاتـه ومواقفـه التـى جعلتـه يخالـف كثـيرًا مـما آمـن بـه فى شـبابه وأيـام كان فقيهًـا.

وربمـا كانـت كلماتـه الأخـيرة، فى اللحظـات التـى يصـل الإنسـان فيهـا إلى قمـة المواجهـة والصـدق مـع النفـس، تكـون هـى المرشـد الأدق لتفسـير كثـير مـن أعمالـه التـى اختلفـت حولهـا التفسـيرات والتبريـرات. هنـا تسـكت كل الأصـوات وتخشـع، ولا يبقـى إلا الصـوت الداخـلى، صـوت الضمـير.

فحـين حضرتـه الوفـاة أمـر بفتـح الأبـواب مـن قـصره، فلـما فتحـت سـمع غسّـالاً بالـوادى فقـال: مـا هـذا؟ قالـوا: غسـالاً.

فقال: يا ليتنى كنت غسّالاً أعيش من عمل يدى.

فلـما بلـغ ذلـك أبـا حـازم الفقيـه، قـال: الحمـد للـه الـذى جعلهـم عنـد موتهـم يتمنـون مـا نحـن فيـه وإذا حضرنـا المـوت لم نتمـن مـا هـم فيـه.

ودخل عليه شيوخ بنى أمية يعودونه، فقالوا: له كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟

قـال: أجـدنى كـما قـال اللـه تعـالى «ولقـد جئتمونـا فُـرادى كـما خلقناكـم أول مـرة وتركتـم مـا خولناكـم وراء ظهوركـم ومـا نـرى معكـم شـفعاءكم الذيـن زعمتـم أنهـم فيكـم شركاء لقـد تقطـع بينكـم وضـل عنكـم مـا كنـت تزعمـون».. وقالـوا: «وكان هـذا آخـر كلام سـمع منـه»، ولتنتهـى قصـة حيـاة امتـلأت بالمواقـف والتحديـات والإنجـازات.. والتحـولات[1].

[1] حاتم الصادق- عبد الملك ابن مروان الغفيه الذي أفسدته السلطة -

معاوية في التاريخ الإسلامي

لنستطلع عمدة الإخبارييت المسلمين « ابن كثير» في البداية والنهاية /الجزء الثامن/ فضل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. هو: معاوية ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله الرحمن القرشي الأموي، خال أمير المؤمنين، وكاتب وحي رب العالمين، أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يوم الفتح.

وقد رُوي عن معاوية أنه قال:{ أسلمت يوم عمرة القضاء، ولكني كتمت إسلامي من أبي إلى يوم الفتح، وقد كان أبوه من سادات قريش في الجاهلية، وآلت إليه رياسة قريش بعد يوم بدر، فكان هو أمير الحروب من ذلك الجانب، وكان رئيسا مطاعاً ذا مال جزيل، ولما أسلم قال: يا رسول الله مرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين.

قال: نعم}.

ثم سأل أن يزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته، وهي عزة بنت أبي سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فلم يقع ذلك، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك لا يحل له.

والمقصود أن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع غيره من كُتاب الوحي رضي الله عنهم .

ولما فتحت الشام ولاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقره على ذلك عثمان بن عفان وزاده بلاداً أخرى، وهو الذي بنى القبة الخضراء بدمشق وسكنها أربعين سنة، قال له الحافظ ابن عساكر:

ولما ولي علي ابن ابي طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر عثمان أن يعزل معاوية من الشام ويولي عليها سهل بن حُنيف فعزله فلم ينتظم عزله والتف عليه جماعة من أهل الشام ومانع عليا عنها وقد قال: لا أبايعه حتى يسلمني قتلة عثمان، فإنه قتل مظلوماً، وقد قال الله تعالى :{ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا} (الإسراء :33).

وروى الطبراني عن ابن عباس أنه قال: مازلت موقنا أن معاوية يلي الملك من هذه الآية.

فلما امتنع معاوية عن البيعة لعلي حتى يُسلمه القتلة، كان من صفين، ثم آل الأمر إلى التحكيم ، فكان من أمر عمرو بن العاص وأبي موسى .

وأستفحل أمر معاوية ولم يزل أمر علي في اختلاف مع أصحابه حتى قتله ابن ملجم، فعند ذلك بايع أهل العراق الحسن بن علي، وبايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان. ثم ركب الحسن في جنود العراق عن غير إرادة منه، وركب معاوية في أهل الشام فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان، سعى الناس بينهما في الصلح؛ فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الملك إلى معاغوية بن أبي سفيان.

وكان ذلك في ربيع الأول من هذه السنة- أعني سنة إحدى وأربعين- ودخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها خطبة بليغة بعد ما بايعه الناس- واستوثقت له الممالك شرقا وغربا، وبُعداً وقُرباً، وسمي هذا العام : عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على أمير واحد بعد الفرقة.

فولى معاوية قضاء الشام لفضالة بن عبيد، ثم بعده لأبي إدريس الخولاني. وكان على شرطته قيس بن حمزة، وكان كاتبه وصاحب أمره سرحون بن منصور الرومي، ويُقال إنه أول من اتخذ الحرس وأول من حزم الكتب وختمها، وكان أول الأحداث في دولته رضي الله عنه.

ومن بعض المصادر الأخرى نعرف:

ولما استُخلف أبو بكر الصديق، ولاه قيادة الجيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، فكان على مقدمته في فتح مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت. ولما استُخلف عمر بن الخطاب جعله واليا على الأردن، ثم ولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد (أخيه) ثم ولاه عثمان بن عفان الديار الشامية كلها وجعل ولاة أمصارها تابعين له.

مكانة معاوية:

بعد استشهاد الإمام علي كرم الله وجهه سنة 40هـ تم الصلح بين معاوية والحسن بن علي- رضي الله عنهم- سنة41هـ تنازل بمقتضاه الحسن عن الخلافة وبويع معاوية، ودخل الكوفة وبايعه الحسن والحسين سنة41 هـ واستبشر المسلمون بهذه المصالحة التي وضعت حدا لسفك الدماء والفتن، وسموا هذا ابلعام عام الجماعة، وهذه إشارة واضحة لرضا الناس عن خلافة معاوية رضي الله عنه واستقبالها استقبالاً حسنا، « فقد تولى الخلافة ووراءه تجربة طويلة في الحكم والإدارة وسياسة الناس ، فولايته على الشام قبل الخلافة لمدة تزيد على العشرين عاما، أكسبته خبرة كبيرة هيأت له النجاح في خلافته، والحقيقة أن معاوية رضي الله عنه كان يتمتع بصفات عالية ترشحه لأن يكون رجل الدولة الأول وتجعله خليقا بهذا المنصب الخطير.

« يقول ابن الطقطقا: وأما معاوية رضي الله عنه كان عاقلا في دنياه لبيبا عالما حاكما ملكا قويا جيد السياسة، حسن التدبير لأمور الدنيا عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً، يحلم في موضع الحلم،، ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه، وكان كريماً باذلاً للمال محبا للرياسة شغوفا بها»، كان يَفضُلُ على أشراف رعيته كثيراً، فلا يزال أشراف قريش مثل: عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر الطيار، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبان بن عثمان بن عفان، وناس من آل أبي طالب رضي الله عنهم، يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم، ويحسن قِراهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجيبونه أقبح الجَبَه، وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعدهم إلا بالجوائز السنية، والصلات الجمة... إلى أن يقول « واعلم أن معاوية رضي الله عنه كان مربي دول وسائس أمم، راعي ممالك، ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد..»

وأما اليعقوبي والمسعودي فقالا :» وكان لمعاوية حلم ودهاء ومكر ورأي وحزم في أمر دنياه، وجود بالمال ...»

وثناء هؤلاء الثلاثة من المؤرخين على معاوية رضي الله عنه وحسن سياسته وإدارته لشؤون الدولة، أمر له مغزاه وأهميته لما عُرف عنهم جميعا من ميول شيعية ملموسة..

وأما إعجاب ابن خلدون به فيتمثل في قوله:» وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة، التي لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يداً، من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم، وآل الزبير وأمثالهم..»

« ويروي ابن الأثير في ّأسد الغابة عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما- أنه قال: ما رأيت أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية؛ فقيل له: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي؟ فقال: كانوا والله خيرا من معاوية وأفضل، ومعاوية أسود... (من السيادة).

" ويروي الطبري مرفوعا إلى عبد الله بن عباس   قوله: ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية ، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء وادٍ رحب ".

" ويقول ابن تيمية: فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيراً من معاوية، إذا نُسبت أيامه إلى أيام من بعده، وأما إذا نسبت إلى أيام أبا بكر وعمر ظهر التفاضل ".

وذُكر عمر بن عبد العزيز عند الأعمش فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حمله، قال: لا والله ، في عدله «، وإليك شهادة الذهبي له: حيث يقول: وحَسبُك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم فيضبطه، ويقوم به أتم قيام، ويُرضي الناس بسخائه وحلمه، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه، وقوه ودهائه ورأيه ».

وهكذا يكاد ينعقد إجماع علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضي الله عنه وجدارته بالخلافة، وحُسن سياسته وعدله، مما مكن له في قلوب الناس، وجعلهم يجمعون على محبته، يقول ابن تيمية: وكانت سيرة معاوية في رعيته من خيار سير الولاة وكانت رعيته تحبه « وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم «.

ومن كل ما تقدم نعرف أن سيرة معاوية كسياسي ناجح، وقائد محنك، وكريم ومعطاء (مؤلف الجيوب) وحلم ودهاء، محب للرياسة شغوف بها. هذه الصفات ظلت تتناقلها الأجيال حتى وصلت إلى التدوين. ولكن بصفته قائداً لجيش أخيه يزيد في الشام من قِبل أبو بكر، ثم واليا على دمشق في عهد عمر، ثم توسعت لعدة إمارات في عهد عثمان، ثم اصبح خليفة المسلمين بعد اغنتصاره على علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن له، ولكنها لم تقل لنا التاريخ الحقيقي الذي تم دحضه من التدوين.

فمعاوية فعلاً كان حاكما لإحدى ولايات الشام أو الأردن، وتوسع فيما جاوره من ولايات حتى حكم الشام كله ولكن ليس بصفته واليا من قِبل أبي بكر وعمر وعثمان ولكن...
ولكننا نرى من خلال مسكوكات العملة معاوية آخر مختلفا عما جاء بالكتابات الإسلامية، صوراً للعديد من مسكوكات العملة تارة حاكما لإحدى ولايات منطقة الشام تحت التاج الساساني وأخرى خاضعاً للقيصر الرومي وأخرى وهو حامل الصليب، ونقوش له لا تمت بأي صلة بإسلامه أو بخلافته للمسلمين وفي إحداها الصليب في أول النقش.
في متحف لندن العديد من العملات التي تشير إلى معاوية بصفته حاكما لإحدى ولايات الشام تحت التاج الساساني ثم تحت التاج البيزنطي، وبالإضافة إلى العديد من مسكوكات معاوية، فإن المتاحف فيها العديد من مسكوكات العملة الأخرى الفضية والذهبية تشير إلى عبد الملك بن مروان وسالم بن زياد وعبيد الله بن زياد. وهناك عملة ضُربت عام 41هـ تحمل اسم زياد بن أبي سفيان. وكلها تحمل علامة الصليب أو الحجر اليهودي (بيت الإله Yegar Sahaduta، وبعض العملات تحمل كلمة» محمد» مع الشمعدان اليهودي ذي السبع أذرع ، وتغيرت أخيراً إلى الشمعدان ذي الخمسة أذرع. ولم يعثر المنقبون على أي عملة تحمل اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان.ولم يُذكر في أي من النقوش أو العملات من زمن معاوية كلمة الإسلام أو أبي بكر أو عمر أو عثمان. فليس هناك ما يدل على أن الحكام الأمويين كانوا مسلمين.





هذه العملة من أهم العملات في نظرنا والتي تشير إلى اعتماد الفرس لمعاوية حاكماًلإحد ولايات الشام. وعلى وجهي العملة نقرأ:
(الوجه :صورة نصفية للملك الساساني متجه بوجهه نحو اليمين وهو يلبس التاج المجنح، نُقش الاسم على الفراغ الأيمن من رأس الملك الساساني بالفهلوية ونصها « معاوية أمير أورشنكان « بمعنى أمير المؤمنين، وعلى الجانب الأيسر لرأس الملك الساساني عبارات الدعاء بالفهلوية ونصها « أفزوت غدة « بمعنى دامت المملكة نامية، وعلى طوق المسكوكة نقشت بالخط العربي « بسم الله « وتوزعت النجمة والهلال على الجهات الأربعة للمسكوكة.
(الظهر: أما الجانب الآخر لهذه المسكوكة ، ففي الوسط معبد النار يقف إلى جانبيه الحارسان المدججان بالسلاح، وكتبت مدينة الضرب « داربجرد « في الفراغ الأيمن من معبد النار، أما الجانب الأيسر فكُتب فيه سنة الضرب 41 بالإضافة لأشكال موزعة (للهلال والنجمة) فنحن هنا أمام عملة نقدية تقول لنا بوضوح :
-إن ولاية معاوية كانت تحت التاج الساساني (ضُربت في فارس باللغة البهلوية وعليها صورة الإمبراطور الساساني خسرو الثاني).

-كلمة « أمير المؤمنين « التي أصبحت في الوعي الإسلامي تعني المسلمين، هو اعتقاد شوفيني؛ لأن هذه العبارة لغويا تعني كل أمير أو رئيس لمجموعة من المؤمنين بدين ما.
-الكتابة بالعربية تعني أن معاوية ينتمي إلى الجنس العربي
وتبقى ثلاث إشكاليات:
الأولى: التاريخ المكتوب على العملة ذهب. كل الباحثين إلى أن العام 41 يعني السنة الهجرية، ولكن في الحقيقة واضح من العملة الوجود الطاغي لإمبراطور الفرس على وجهيها؛ وإن كانوا فسروه بأنه ضُرب في فارس، ولكن المنطق يقول إن ضرب نقود لدولة (س) لدى دولة أخرى (ص) لايستدعي وجود أي رموز للدولة (ص) على عملة الدولة (س)؛ خصوصا وإذا كانت الدولة (س) دولة مستقلة ذات سيادة بل إنها انتصرت على الدولة (ص) وأخضعتها كما يقول التاريخ الإسلامي.

هل كانت العملة المصرية التي يتم سكها في في لندن تحمل أي إشارة إلى بريطانيا؟
وعملات بعض دول الخليج والتي كانت وإلى وقت قريب يتم طبعها في بريطانيا، تحمل أي إشارات إلى بريطانيا؟
الحقيقة أن العملة تقرر بوضوح أن معاوية كان والياً على إمارة للمؤمنين الذين لم توضح ديانتهم، وهل هم مسلمون أو مسيحيون أو حتى يهود، تحت السيادة الساسانية ولا يمت بأي صلة للتاريخ الهجري بل يثبت أن معاوية كان خاضعاً للإمبراطورية الفارسية وفي زمن آخر، كما سنوضح فيما بعد.
ومن المعروف أن كل دولة أو تجمع بشري في أي شكل من أشكال التوحد يعتمد له تقويم معين يكون في العادة بداية لتكوين الدولة أو الإمارة أو أي تاريخ بارز لها، وأعتقد أن التقويم على عملة معاوية في العام 41، يرمز إلى ميلاد معاوية أو بداية نزوحه مع قومه من جزيرة العرب. وإن كنت أرجح أن يكون تاريخ ميلاد معاوية؛ لأنه السن المناسب ليعتلي الإمارة.
الثانية: وجود النجمة والهلال على العملة لايعني أبداً رمزاً إسلامياً في هذا الزمان وإنما أضيف فيما بعد، ففي معارك النبي صلى الله عليه وسلم كانت الرايات بلون واحد فقط: أخضر أو أبيض أو أسود.
فرمز الهلال والنجمة، منفردة أو مجتمعة، استعملته حضارات الشرق الأوسط ابتداءً من المؤابيين في القرن 14 قبل الميلاد.
فلدينا مثلاً درهم من عهد قباد الأول 531-488 قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بـ40 سنة.



قباد 531-488 أي توفي قبل ميلاد محمد بـ40 سنةواضح فيه النجمة.

فمن المعروف أن العديد من الحضارات القديمة استعملت النجمة والهلال شعاراً لها؛ ففي الحضارة السومرية كان الهلال يرمز لإلهة القمر نانا Nanna، والنجمة تعني كوكب المريخ رمزاً لإلهة الأسطورية سِن – Sin التي هي نفسها نانا إلهة القمر والوقت، والنجمة يعني الإلهة شاماش- Shamash أو بالعربي شمس، واجتماع الرمزين مع بعض في علم معناه اجتماع القوة السماوية في هذه المملكة أو الملك نفسه.

ومن المعروف أيضاً أن أول من استخدم شعار النجمة والهلال كشعار إسلامي هم العثمانيون.

الثالثة: كلمة بسم الله على العملة.

وواضح أن معاوية ورهطه كانوا منتمين للطائفة المسيحية التي لا تؤله المسيح ولكنه تعتبره نبيا رسولاً، فالبسملة في الإسلام لم تأخذ شكلها النهائي إلا بعد أن مرت بالعديد من المراحل، أما من يقول إنها آية قرآنية فقد اختلفت الآراء في ذلك :

« ذهب مالك والأوزعي إلى أنها ليست من القرآن، ومنعا من قراءتها في الفرائض مطلقاً، نعم أجازا قراءاتها في النافلة «

أما أبو حنيفة والثوري وأتباعهما فقرأوها في افتتاح « الحمد « ولكن أوجبوا إخفاتها، والشافعي قرأها في الجهريات جهراً وفي الإخفاتيات إخفاتاً، وعدها آية من الفاتحة ، وهذا هو قول أحمد بن حنبل أيضاً، واختلف المنقول عن الشافعي في أنها آية من كل سورة أم أنها ليست بآية في غير « الفاتحة «.

*أما الشيعة الإمامية فقد اتفقوا على أنها آية تامة في جميع سور القرآن الكريم (عدا سورة براءة)

-أخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم. فكتب النبي صلى الله عليه وسلم أول ما كتب : باسمك اللهم. حتى نزلت { بسم الله مجراها ومرساها} فكتب {بسم الله} ثم نزلت { قُل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان} (الإسراء: 110) فكتب { بسم الله الرحمن} ثم أنزلت الآية التي في {طس... إنه بسم الله الرحمن الرحيم} فكتب { بسم الله الرحمن الرحيم}.

- وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحرث العكلي قال : قال لي الشعبي كيف كان كتاب النبي إليكم؟ قلت: باسمك اللهم فقال: ذاك الكتاب الأول كتب النبي صلى الله عليه وسلم (باسمك اللهم) فجرت بذلك ما شاء الله أن تجري، ثم نزلت { بسم الله مجراها ومرساها} فكتب (بسم الله) فجرت بذلك ماشاء الله أن تجري، ثم نزلت { قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} فكتب (بسم الله الرحمن) فجرت بذلك ما شاء الله أن تجري، ثم نزلت { إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} فكتب بذلك.

-وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران. أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب(باسمك اللهم) حتى نزلت {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}.

-وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال: لم يكن الناس يكتبون إلا (باسمك اللهم) حتى نزللت {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}.

-وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال: لم يكن الناس يكتبون إلا (باسم اللهم) حتى نزلت { إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}.

-وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب {باسمك اللهم} فلما نزلت {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم } كتب { بسم الله الرحمن الرحيم}.

ومن هذا يتضح لنا أن (بسم الله) على عملة معاوية لم تكن رمزاً إسلامياً بقدر ماكنت رمزاً توحيداً يدل على انتمائه إلى طائفة مسيحية لا تؤله المسيح.

بل إنه من المعروف أن البدوي بطبيعة ارتباطه بالصحراء وامتدادها اللامتناهي ولونها الأصفر وسمائها الزرقاء وعدم تعدد أشكال الطبيعة أو الزراعة فيها، ينحو ناحية التوحيد، وهذا واضح من جدل القرآن مع مشركي قريش الذي أقر بتوحيدهم مع اتخاذ الأصنام زلفى للتقرب إليه (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون)، (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

حتى أن التاريخ الإسلامي يقول لنا إن ورقة بن نوفل في مكة كان نصرانيا على إنجيل برسم العبرانيين الذي يقول إن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وينفي عقيدة التثليث.

نقش معاوية على حمامات غدير



وترجمته كالتالي:

(في أيام عبد الله معاوية « عبد الله Maavia، القائد من المؤمنين « أميرة almoumenèn « الحمامات الساخنة من تم حفظ الناس هناك وإعادة بنائها بواسطة Abd الله بن أبي هاشم « Abouasemou « ومحافظ ، في الخامس من شهر ديسمبر ، في اليوم الثاني (الأسبوع)، في العام TH6 من indiction، في سنة 726للمستعمرة وفقاً للعرب (كاتاArabas) السنة الـ42، لشفاء المرضى تحت رعاية إيوانس، المسؤل غادارا).

ومن المعروف أن حمامات غادير (EL-Hammeh) تبعد حوالي7كم شرق الطرف الجنوبي من بحر الجليل. وادي حمامات غادير يشتهر بالينابيع الباردة والساخنة تُستخدم كعلاج ، وهذا النقش اليوناني من وقت معاوية يشير إلى ترميم الحمامات.

ويُلاحظ على النقش التالي:

الأول: النقش مكتوب باللغة اليونانية وليس باللغة العربية، مع أنه كحاكم عربي كان الأجدر به كتابته باللغة العربية.

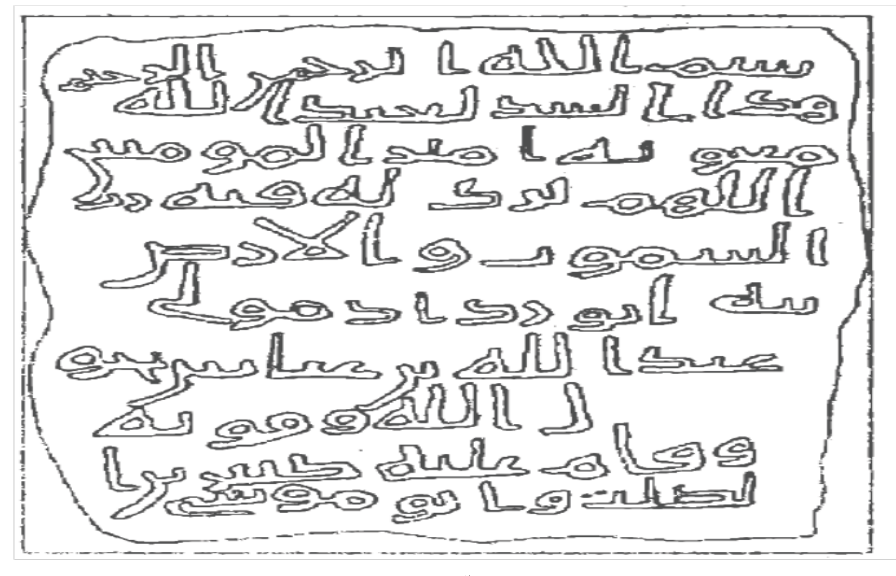
الثاني: يُلاحظ الصليبمع بداية السطر الأول من اللوحة .

الثالث: تاريخ النقش هو العام42 والذي يُفيد أن معاوية أقام هذا السد بعد ولايته في العام 41، كما هو مذكور على العملة التي ضُربت بفارس، وهو تاريخ عربي ليس له علاقة بالتاريخ الهجري.

الرابع: ليس في النقش أي إشارة إلى الإسلام أو نبي الإسلام أو كتابة البسملة في أول النقش، عكس نقش آخر على نصب تذكاري لأحد السدود القريبة من الطائف، والتي بدأت بالبسملة ومكتوب باللغة العربية وإن كان أيضاً بدون أي إشارة إلى الإسلام أو خلافة المسلمين.

الخامس: أمير المؤمنين لا تشير إلى المسلمين؛ لأن كل تابعي الأديان مؤمنين بدينهم، فالمسيحيين لهم أمير واليهود والسيخ والهندوس....إلخ.

نقش لمعاوية على سد وادي الخنق أو (وادي قناة قديماً) شرقي المدينة المنورة



ترجمة النقش:

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا السد لعبد الله معاوية أمير المؤمنين اللهم بارك له فيه رب السموات والأرض بناء بناه أبو رداد مولى عبد الله بن عباس بحول الله وقوته وقام عليه كثير بن الصلت وأبو موسى).

ويُلاحظ وجود البسملة وكتابته باللغة العربية دون الإشارة إلى أي تاريخ، وأنه كان كالنقش السابق بدون أي إشارة إلى اانبي محمد أو خلافته أو المسلمين.

ويوجد شاهد آخر على سد قريب من الطائف ذكره المؤرخون، وإن كانت آثاره غير واضحة الآن:

(هذا السد لعبد الله معاوية أمير االمؤمنين بناه عبد الله بن صخر بإذن الله سنة ثمان وخمسين اللهم اغفر لعبد الله بن معاوية أمير المؤمنين وبنيه وانصره ومتع أمير المؤمنين به كتبه عمرو بن جناب).

بالإضافة إلى سكات العملة وشواهد الآثار، يوجد لنا شذرات من التاريخ نستطيع بعد قراءتها تضفير كل هذه المعلومات، لنخرج في النهاية إلى النتيجة التي وصلنا إليها.

« فلهاوزن « يقول إن معاوية نصب نفسه أميراً في بيت المقدس، وصلى بهذه المناسبة في الجلجلة وعند كنيسة الجسمانية وقبر مريم (الهاجروين: تأليف باتريشات كرونه – ترجمة نبيل فياض).

« يوسيبيوس « في كتابه (تاريخ الكنيسة) يقول: تجمع كثير من العرب وبايعوا معاوية ملكاً فذهب إلى جلجلة وجلس هناك وصلى ثم ذهب إلى الجسمانية ونزل إلى حيث قبر مريم وصلى فيه.

لا يوجد في سجلات معاوية أي كتابات تدل على أنه مسلم، ولكن لدينا عدة نصوص تقول إنه عربي هو وقومه ، وأصحاب ديانة غير مسيحية، وأنهم كانوا يحكمون الشام وهو ما كتبه الأسقف النسطوري أُوشعيب Isho yahb في عام 659، أي في أيام معاوية حيث يقول: ولكن هؤلاء العرب الذين منحهم الله السلطة على البلاد في هذه الأيام ....فإنهم لا يهاجمون المسيحية بل يحترمونها ويحمون كنائسنا وبيعنا ويحترمون قساوستنا). نفس المصدر أعلاه ص 216.

يموت وفي عنقه صليب :

برغم ما أخفاه الإخباريون المسلمين وأهالوا عليه التراب عن مسيحية معاوية، إلا أن الحقيقة تفلت من بين أيديهم في شادرة هنا أو هناك تقول ما وعته الذاكرة الشفهية للمعاصرين- جيلاً بعد جيل- لتصل إلى مرحلة التدوين وليذكرها البعض دليلاً دامغاً يصب في مصالح رؤيتنا، فنقرأ:

روى القاضي النعمان المغربي في شرح الأخبار: 2/153 المتوفي سنة 363: عن سعيد بن المسيب قال: مرض معاوية مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه طبيب له نصراني فقال: ويلك ما أراني أزداد مع علاجك إلا علة ومرضًا! فقال له: والله ما أبقيت في علاجك شيئًا أرجو به صحتك إلا وقد عالجتك به، غير واحد فإني أبرأت به جماعة، فإن أنت ارتضيته وأمرتني بأن أعالجك به فعلت.

قال: وماهو؟ قال: صليب عندنا ما عُلق في عنق عليل إلا فاق ! فقال له معاوية: علي به. فأتاه به فعلقه في عنقه فمات في ليلته تلك والصليب معلق في عنقه). ورواه في المناقب والمثالب /225، وفي الصراط المستقيم لابن يونس العاملي:3/50: (سلمة بن كهيل: قال الأحنف: سمعت عليا يقول: مايموت فرعون حتى يعلق (صفحة 92) الصليب في عنقه ، فدخلت عليه وعنده عمرو والأسقف، فإذا في عنقه صليب من ذهب ! فقال: أمراني وقالا: إذا أعيا الداء الدواء تروحنا إلى الصليب فنجد له راحة !

الزهري: دخل عليه راهب وقال : مرضك من العين، وعندنا صليب يذهب العين فعلقه في عنقه فأصبح ميتاً، فنزع منه على

مغتسله. وفي المحاضرات: لما علقه قال الطبيب: إنه ميت لا محالة، فمات من ليلته !

وفي التعجب لأبي الفتح الكراجكي 107:(واشتهر عنه لم يمت إلا وفي عنقه صليب ذهب، وضعه له في مرضه أهون المتطبب، وأشار إليه بتعليقه، فأخذه من كنيسة يوحنا وعلقه في عنقه.

ونلاحظ أن هذه الحقيقة التي تناقلت عبر الأجيال يتم التحايل عليها بأن طبيباً يهودي نصحه بهذا الصليب حتى يتم شفاؤه فعلقه ومات في الصباح.

والأهم من هذا أننا أمام حديث صريح منسوب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول فيه: (إن معاوية سيموت على غير ملة الإسلام.

(ثبت بالسند الصحيح عند البلاذري في التاريخ الكبير قال: حدثني إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال:{ يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت يوم يموت على غير ملتي! قال: وتركت أبي يلبس ثيابه فخشيت أن يطلع فطلع معاوية[1]}...

[1]هشام حتاتة – محمد ومعاوية التاريخ المجهول- ص65و83

أساليب تثبيت الحكم عند الأمويين

لقد مر بنا القول بأن ألأمويين أبعد المسلمين، من الناحية الشرعية عن تولي خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم مع هذا قد ارتفعوا إلى مستويات الحكم في البلاد الإسلامية، وكان ارتفاعهم هذا، كما سلف أن ذكرنا نتيجة أساليب الفاسدة التي استعانوا بها في هذا المضمار، فلا عجب أن رأيناهم يستعينون بالأساليب الفاسدة أيضا لتثبيت قواعد حكمهم، وتتلخص أساليبهم في الأمور التالية:

إتباعهم سياسة الشدة واللين:

إتباعهم سياسة الشدة ووصولهم إلى ذروتها من جهة، وتبنيهم سياسة اللين وبلوغهم منتهاها من جهة أخرى. وقد رافق ذلك ونتج عنه تبذير لأموال المسلمين وصرفها في غير مواضعها المشروعة من جهة، وحبس لها عن مستحقيها من جهة ثانية، وقد جرى ذلك كله حسب مستلزمات الظروف التي كانوا يعيشون فيها.فأثرت تلك السياسة بجناحيها في الخلق العربي الإسلامي أسوأ تأثير.

وتعدى أثرها العهد الأموي فانتشر، عن طريق الوراثة الاجتماعية بين العرب المسلمين جيلا بعد جيل حتى أدرك العهد الذي نعيش فيه، وربما انتقلت أثاره إلى الأجيال القادمة.

وإلى القارئ طائفة من الأمثلة لتأييد وجاهية ما ذهبنا إليه قال ابن عبد ربه:

قدم يزيد بن منبه على معاوية بن أبي سفيان من البصرة، وهو أخو يعلى بن منبه صاحب جمل عائشة، فلما دخل على معاوية شكا إليه دينا لزمه، فقال معاوية: يا كعب أعطه ثلاثين ألفا، فلماولى قال معاوية وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى.

ولا ندري كيف استحق الرجل ذلك المبلغ الضخم من مال المسلمين !! وهل الخروج على الإمام علي رضي الله عنه في حرب الجمل جهاد يستحق عليه الناس تناول هذا المبلغ الكبير من بيت المال؟

وإذا كان يزيد قد استحق ذلك المبلغ الجسيم لأن أخاه كان صاحب جمل عائشة فما هي حصة يعلى؟

هل كان معاوية يعتبر أصحاب الجمل وأصحاب الصفين كما سنرى من ذوي السابقة في -الإسلام-؟

فيجعل منزلتهم كمنزلة البدريين عند عمر؟

ذلك جانب من جوانب الاعتداء على حرمة الإسلام في سبيل تثبيت قواعد الحكم الأموي.

أما الجوانب الأخرى في هذا الصدد فتظهر في الأمور التالية:

عندما أراد معاوية أن يعزل المغيرة ابن شعبة عن الكوفة ويستعمل بدله سعيد بن العاص بلغ ذلك المغيرة فقدم على معاوية واقترح عليه تولية يزيد،من بعده خليفة للمسلمين، منع ذلك معاوية عن عزله وأوجد في نفسه ميلا لتخليف يزيد. فمضى المغيرة، حتى دخل على يزيد وقال له: أنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وبقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة.

ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة!! فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر معاوية المغيرة.

فقال المغيرة يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء ....وفي يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس..

قال معاوية: ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه في ذلك وترى ونرى.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه أمر يزيد فأجبوا إلى بيعته فأوفد منهم عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى.

وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ..فقال معاوية لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال بثلاثين ألفا.

قال: لقد هان عليهم دينهم فقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد.

فكتب إلى عماله بتقريظ يزيد، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار. فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو من المدينة والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة فتبادلوا الكلام في يزيد.

ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين. وأشار إلى معاوية فإن هلك فهذا. وأشار إلى يزيد. ومن أبى فهذا. وأشار إلى سيفه. فقال له معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء.

وخطب معاوية فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق بالخلافة منه في فضله وعقله وموضعه!!

-وخطب معاوية فقال له: رجل كذبت، فنزل مغضبا فدخل منزله ثم خرج عليهم تقطر لحيته ماء، فصعد المنبر وقال أيها الناس إن الغضب من الشيطان وأن الشيطان من النار ، فإذا غضب أحدكم فليطفئه بالماء.

وقد بدا معاوية في هذا المثال على جانب كبير من المرونة وضبط النفس، كما بدا الشخص الذي رماه بالكذب متثبتا من قوله، ولو استطاع معاوية أن يثبت عكس ذلك لناقشه على الأقل أو لأمر به فنال ما يستحقه من عقاب لتطاوله على الخليفة.

وقد تجلت براعة معاوية في الالتواء، وبرز دهاؤه في التملص من المآزق الحرجة في إشغاله السامعين بالتحدث عن وسائل إزالة الغضب بدلا من التحدث عن أصل المشكلة التي كان يتحدث عنها فرمي بالكذب من أجلها.

أما سياسة الشدة وهي الجانب السلبي لما ذكرناه فتظهر بأبشع صورها في قتل حجر بن عدي وأصحابه، والحسين بن علي وأصحابه، وفي قتل عمرو بن سعيد الأشدق ومصعب ابن الزبير ، وعبد الله ابن الزبير، وفي رمي الكعبة واستباحة المدينة ثلاثة أيام.

الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين:

فقد تبنى الأمويون عن طريق المصانعة والمداراة بالمال طائفة من المسلمين لوثوا ضمائرهم فدسوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث مكذوبة، ولفقوا على المسلمين آنذاك طائفة من القصص والحكايات وأوجدوا مخارج شرعية كثيرة لموبقات الأمويين.

وقد نهى الإسلام عن الكذب في شتى صوره وبخاصة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلموفي القرآنم طائفة كبيرة من الآيات كلها تبدأ بهذا الشكل:

{ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا}

وباستطاعة الباحث المدقق أن يهتدي دون مشقة كبيرة إلى معرفة الحديث المفتعل والمكذوب وتحديد زمانه وتعيين الغاية التي وضع من أجلها، ويصدق الشيء نفسه على الروايات المكذوبة والأخبار الملفقة.

والهدف العام من تلك الأحاديث والروايات المكذوبة والأخبار الملفقة :{ خدمة العرش} الأموي وتثبيت قواعد بنائه.

والقاسم المشترك بين جميع هذه الأحاديث أنها تدعو المسلمين للخضوع لأوامر الحكومة القائمة منددا بمثيري الفتن والمشتركين فيها.ويتلخص جميعها فيما يي:{ ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به}.

ويتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو أمته برسالته إلى الانصياع والانبطاح إلى حكامهم حتى وإن خرج أولئك الحكام في تصرفاتهم على مبادئ الإسلام وذلك خوفا من التفرقة والقطيعة ؛ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الأحاديث يدعوا أمته إلى هدم رسالته للمحافظة على وحدة الصفوف على حساب الدين. وهو أمر على جانب كبير من الخطورة والمجازفة.

مجالس الخمر:

لقد ساعد ظهور مجالس الخمر، السياسة الأموية في مهمة تدعيم سلطتها، وتثبيت ملكها؛ بالإغراء العامة وعزلهم عن أمور الدولة وشؤونها، وكان من أول رودها بعض خلفاء بني أمية الذين شربوها في قصورهم التي كانت تنعم بالرخاء، ومظاهر الترف المتنوعة، فكانوا لها شاربين يعينون لتعاطيها أوقات، فعبد الملك يأتيها مرة في الشهر، وابنه الوليد يشربها يوما بعد يوم، وسليمان كل ثلاث ليال، أما يزيد بن معاوية. والوليد بن يزيد فلا يقيمان لها موعدا خاصا يضاف إلى ذلك تحليل بعض الخلفاء بعض الأنبذة؛ فمعاوية الذي لقب بداهية العرب في سياسته حلل نبيذ أهل الشام، وعمر بن عبد العزيز حلل لهم شرب الأنبذة التي أحلها الله من الماء والعنب واللبن والسويق،وأشربة كثيرة من نبيذ التمر والزبيب، بينما ذهب بعض الناس في العصر الأموي إلى أن الخمر المحرمة في الكتاب هي خمر العنب فقط، شرط ألا تمسها النار. إن تحليل شرب بعض الأنبذة، وتساهل بعض الخلفاء فيما يتصل بالخمر ، شجعا غير قليل من الشعراء على ارتياد مجالس الخمر واقعا، وتصويرها في الفن، وتسجيل ما يدور فيها ، بوصفها المكان الذي ينكشف فيه الإنسان على الآخرين، ويكون فيه أكثر صراحة لخلوه من الرقابة التي تحد من حرية الإنسان، وتمنعه، من ممارسة ما يراه حقا من حقوقه.

فعلى الرغم من أن السياسة الأموية رغبت في أن تجعل من مجالس الخمر وسيلة لهو للعامة؛ لتدعيم سلطتها ، لم تستطع أن تكون مصدر ألم للناس، فكان دورها ازدواجيا في أن معا؛ ففي الوقت الذي استطاعت فيه أن تبعد الإنسان الأموي عن المشاركة في أمور الدولة ظاهرا، حرضت فيه الجانب الميت في قول الحق، وفضحت أسلوب السياسة الأموية مع الشعب؛ إذ تحول السجن أيام السفيانيين عن غايته الأساسية في الإصلاح ، وأصبح السجن وقفا على المعارضين السياسيين، والمناوئين للسلطة، ولو كان هؤلاء من الأمويين أنفسهم، كما كشفت عن مجالس الخمرية عن لبعض خلفاء بني أمية، ونذكر منهم يزيد بن معاوية الخليفة الشاعر الذي لم يستطع مجلسه أن يخفي العلاقة التي بدت بينه وبينديمه؛ إذ تمثلت في علاقة السلطة بالشعب، وأظهرت الطريقة التي تود بها السلطة إكرام العامة، فاقترن المجلس بسلطة الخليفة وجبروته، وصدق الشاعر وواقعيته، فكان صورة حية تنطق بالسياسة التي اتسم بها المجتمع الأموي، والتي ترغب في تغييب العامة، وتسطيح فكرهم يقول:

وإن نديمي غير شك مكرم لدي وعندي من هواه ما ارتضى

يريد- بداية- التماس نقاط الضعف لدى النديم الذي يمثل الشعب؛ ليتحكم به، فيظهر النديم بمظهر المسير، ثم يبدأ الخليفة- بعد أن يسلبه صفاته الإنسانية- بالسيطرة عليه، والتحكم بمصيره؛ فهو على دراية بحبه للخمر، وشدة التعلق بها، إلا أنه يود الهلاك له، فيختار له الهوى فيها؛ لهدم قدراته وعزله عن الآخرين، فهو سقوط دائم ونفي دؤوب إلى أن يقول:

ولست له في فضلة الكأس قائلا لأصرعه سكرا تحس وقد أبى
ولكن أحييه وأكرم وجهه وأصرفها عنه وأسقيه ما اشتهى
وليس إذا ما نام عندي بموقظ ولا سامع يقظان شيئا من الأذى

إن تعلق الخليفة -أيضا- بالخمر، وحبه لها جعلاه أكثر كرما، وشجاعة مع نديمه في مجلسه الخمري، فنجده يؤمن له ما استطاع من لذائذ تمتعه، وتبعث في نفسه الطمأنينة، فيحرص بداية على بلوغ نديمه مرحلة السكر؛ لأنه يريد المبالغة في إظهار كرمه من جهة، والاستئثار بالمجالس من جهة أخرى فهو يرفض المشاركة ويريد أن ينفرد بمجلسه رأيا واحدا؛ كما نلاحظ أن صوت الخليفة وحده الذي نسمعه في المجلس (أصرعه،أحييه، أكرم...)، ومن خلاله نستمد ملامح النديم[1]، التي تظهر بصورة الإنسان السكران، النائم الذي لا يسمع ولا يرى، فهو غائب عن الوجود ولا سيما عن مجلس الخليفة،الشاعر الذي أكرمه، ورحب به، لكنه رفض أن يشاركه مجلسه، إنسان موجودا، واكتفى بملامحه الشكلية. وهذا ما ألحت عليه السياسة الأموية في علاقتها مع العامة، وهو رفضها حق مشاركة الشعب بأمور الدولة، أو التدخل بشؤونها.

كما بينت مجالس الخمر الحلم السياسي الذي حرم الإنسان من التفكير فيه في الواقع فلجأ إلى مجالس الخمر كي يحققها في عالم الفن يقول الأخطل :

إذا ما نديمي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيها كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

لقد أوصل السكر الأخطل إلى عرش الملك، بل جعله في حالة يصعب وصفها، إذ عبر عن ذلك بقوله عندما طلب منه الخليفة أن يصف حالة السكر، فقال: أوله لذة وأخره صداع، وبين ذلك حالة لا أصف لك مبلغها، فقال عبد الملك ما مبلغها قال: لملكك يا أمير المؤمنين(عندها) أهون من شسع نعلي.

نتبين مما تقدم أن السياسة كانت عاملا في ظهور مجالس؛ لإلهاء العامة عن الشؤون السياسية،وتخديرهم بإغراقهم بالملذات.

[1]مروج الذهب ج3 ص 128 – المسعودي-

ولاة السوء:

استعان الأمويون بطائفة من الولاة القساة الفجرة في تصريف شؤون المسلمين.فكان هؤلاء لا قلون عن أسيادهم الأمويين جفاء لروح الدين وخروجا سافرا على مقوماته وتعاليمه.

وقد اشترك هؤلاء مع الأمويين في جميع موبقات التي ذكرناها بشكل مباشر أو غير مباشر أحيانا وأشهر هؤلاء الولاة وهم كثيرون عمرو بن العاص وزياد بن سمية والحجاج بن يوسفالثقفي.

فعمرو وهو ابن العاص بن وائل السهمي.

وكان عمرو من أكبر المؤلبين على عثمان بن عفان والمخذلين عن نصرته لانه عزله عن ولاية مصر

فكان يؤلب الناس عليه ويحرضهم ما وسعه دلك سرا، على أنه لم يتردد أن قال لعثمان جهرة في المسجد: إنك ركبت بالناس أمورا وركبناها معك فتب إلى الله نتب.

وكان عمرو وابناه على ما هم عليه بفلسطين حتى جاءهم النباء بقتل عثمان، فقال عمرو لابنه عبد الله أنا أبوك ما حككت قرحة إلا أدميتها، يريد أنه مهد للفتنة والثورة بعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الأمر إلى غايته . ويحدثنا عمرو نفسه عن بعض ما فعله من التأليب على عثمان وهو في طريقه إلى فلسطين فيقول على ما يذكر البلاذري:{ والله أني كنت لا ألقى الراعي فأحرضه على عثمان } أما موقفه الدنيء في التحكيم فلا يحتاج إلى شرح فقد أغفل أبا موسى الأشعري- ابتداء- وألقى في روعه أن موضوع التحكيم ينحصر في تعيين خليفة للمسلمين. كأن خلع علي من الخلافة قد بات أمرا مفروغا، ولما اطمأن عمرو إلى ثبوت ذلك في ذهن أبي موسى جعل موضوع البحث ينحصر في الاتفاق على مرشح جديد.

ولما ظهر أنهما لم يتفقا على شخص معين، طلب عمرو من أبي موسى أن يوجد حلا للخروج من ذلك المأزق الحرج الذي يتوقف عليه مير المسلمين آنذاك.

فتقدم أبو موسى باقتراح جديد ظنه كسبا له واندحارا لأبن العاص. فقد خيل إليه أنه سينتصر إذا ما وافق عمرو على خلع معاوية بعد أن بات على خلع علي أمرا متفقا عليه. فوافق عمروفي الظاهر على الفكرة وأغرى صاحبه أن يعلنها للناس، ثم عاد فغدر بهفبرز عمرو في ذلك كله بأبشع ما يبرز فيه الرجل من الخداع والدس والتدني عن مستويات الأخلاق الرفيعة[1].

ومن الطريف ما يروى عن عمرو قوله لعائشة :{ كنت أود أنك قتلت يوم الجمل قالت: ولم لا أبا لك؟؟ قال كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر تشنيع على علي ابن ابي طالب}.

وروى ابن مزاحم قال: حدثني يحي بن يعلى قال حدثني صباح المزني عن الحرث بن حصن عن زيد بن أبي رجاء عن أسماء بن حكيم الفزاري قال:{ كنا بصفين مع علي تحت راية عمار بن ياسر ارتفع الضحى وقد استظللنا برداء أحمر إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى إلينا وقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار:أنا عمار قال أبو اليقظان؟ قال : نعم.

قال إني إليك حاجة، قال: أفأنطق بها سرا أو علانية؟ قال اختر لنفسك أيهما شئت. قال لابل علانية ، قال: فانطق بها. قال لإني خرجت من أهلي مستبصرا حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي مناديا تقدم فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ونادى بالصلاوة ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم اجتمعت الصلاة فصلينا صلاة واحدة وتلونا كتابا واحدا ودعونا دعوة واحدة. فأدركني الشك في ليلتي هذه فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له. فقال: هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت لا.

[1] صراع الأمويين ومبادئ الإسلام –نوري جعفر –ص 53

قـال: فألقـه فانظـر مـاذا يقـول لـك عـمار فاتبعـه فجئتـك لذلـك. قـال عـمار: تعـرف صاحـب الرايـة السـوداء المقابلـة لي؟ فإنهـا رايـة عمـرو بـن العـاص قاتلهـا مـع رسـول اللـه ثـلاث مـرات وهـذه الرابعـة. فـما هـي بخيرهـن ولا أبرهـن بـل شرهـن وأفجرهـن.
أشـهدت بـدرا وأحـد ويـوم حنـين أو شـهدها أب لـك فيخـبرك عنهـا؟ قـال لا. قـال: فـإن مركزنـا اليـوم عـلى مراكـز رايـات رسـول اللـه يـوم بـدر ويـوم أحـد ويـوم حنـين، وإن رايـات هـؤلاء عـلى مراكـز رايـات المشركـين مـن الأحـزاب . فهـل تـرى هـذا المعسـكر ومـن فيـه؟
واللـه لـوددت أن جميـع مـن فيـه ممـن مـع معاويـة يريـد قتالنـا مفارقـا للـذي نحـن عليـه كانـوا خلقـا واحـدا فقطعتهوذبحتـه، واللـه لدماؤهـم جميعـا أحـل مـن دم عصفـور. أفـتراني بينـت لـك!! قـال: قـد بينـت لي. قال:فاخـتر أني ذلـك أحببـت. فانـصرف الرجـل فدعـاه عـمار ثـم قال:اما أنهـم سـيضربونكم بأسـيافهم حتـى يرتـاب المبطلـوب منكـم فيقولـوا لـو لم يكونـوا عـلى حـق مـا أظهـروا علينـا. واللـه ماهـم مـن الحـق عـلى مـا يقـذي عـين دبـاب. لـو ضربونـا بأسـيافهم حتـى يبلغونـا سـعفان هجـر لعلمنـا أنـا عـلى حـق وأنهـم عـلى باطـل.
أمـا زيـاد بـن أبيهحينـما كان واليـا عـلى البـصرة كان يؤخـر صـلاة العشـاء ثـم يأمـر صاحـب شرطتـه بالخـروج فيخـرج ولا يـرى إنسـانا إلا قتلـه. قـال: فلقـى ليلـة أعربيـا فـأتي بـه زيـاد فقـال: هـل سـمعت النـداء؟ قـال: لا والـل. قدمـت بحلوبـة لي غشـيني الليـل فاضطررتهـا إلى موضـع. فأقمـت لأصبـح ولا علـم لي بمـا كان مـن الأمـر. قـال: أظنـك واللـه صادقـا ولكـن في قتلـك صـلاح هـذه الأمـة. ثـم أمـر بـه فضربـة عنقـه.
والغريـب في الأمـر إن أبسـط العقوبـات الشـائعة في العهـد الأمـوي هـي القتـل وكان ينبغـي أن تكـون تلـك العقوبـة آخـر العقوبـات حسـب تعاليـم الديـن والعـرف السـياسي الشـائع، وأغـرب مـن ذلـك أن القتـل كان يجـري عـلى التهمـة ودون محاكمـة أو سـماع لوجهـة نظـر المتهـم.
وكان الحجـاج يخـبر عـن نفسـه أن أكـثر لذاتـه سـفك المـاء وارتـكاب أمـور لا يقـدم عليهـا غـيره ولا سـبق إليهـا سـواه.
وقد سأل الحجاج يوما بعض كتابه عن رأي الناس فيه فستعفاه الكاتب فلم يعفه .
فقال: يقولون أنك علوم، غشوم، عسوف ، كذاب.
وقد سأله يوما عبد الملك بن مروان أن يصف نفسه على حقيقتها.
فقال: اعفني يا أمير المؤمنين: قال لتفعلن.
قال: أنا لجوج، حقود، حسود.
قال عبد الملك ما في الشيطان شر مما ذكرت.

شهادة الزور:
وهـي موبقـة لا تقـل شـناعة عـما سـبقها وقـد استشـنعها الاسـلام ومنعهـا وعاقـب عليهـا ولشـهادة الـزور نتائـج وخيمـة، ماديـة ومعنويـة قريبـةو وبعيـدة وتتعلـق شـهادة الـزور أشـد التعلـق بالموبقـات التـي ذكرناهـا.
ولم يـتردد الأمويـون مـن الاسـتعانة بهـذا السـلاح الخطـر للتنكيـل بخصومهـم لا لذنـب إقترفـوه بـل لأنهـم يطالبـون الأمويـون، عنـد إسـتعانتهم بشـهادة الـزور موبقتـين في آن واحـد: تلفيـق الشـهادة ، والعقـاب عـلى جـرم ملفـق.
وفي تاريـخ الأمويـين مـن ذلـك الـشيء الكثـير ولعـل أشـهر شـهادة زور تلـك التـي لفقوهـا ضـد حجـر بـن عـدي وأصحابـه.
وإلى القـارئ نصهـا: هـذا مـا شـهد عليـه أبـو بـردة بـن أبي مـوسى الأشـعري للـه رب العالمـين، شـهد أن حجـر بـن عـدي خلـع الطاعـة وفـارق الجماعـة. وجمـع إليـه الجمـوع يدعوهـم إلى نكـث البيعـة وخلـع أمـير المؤمنـين. معاويـة ابـن أبي سـفيان، وكفـر باللـه عـز وجـل كفـرة صلعـاء.
فقـال زيـاد بـن سـمية: عـلى مثـل هـذه الشـهادة فأشـهدوا.. فشـهد اسـحاق بـن طلحـة ابـن عبيـد اللـه ومـوسى بـن طلحـة واسـماعيل بـن طلحـة والمنـذر ابـن الزبـير... والـسري بـن وقـاص الحـارثي، كتبـت شـهادته وهـو غائـب في عملـه.
والهيثـم ابـن الأسـود النخعـي، وكان بعتـذر إليهـم .....وكتـب في الشـهود شريـح بـن الحـارث القـاضي وشريـح ابـن هانـئ الحـارثي.
فأما شريح القاضي فقال: سألني عن حجر فأخبرته أنه كان صواما قواما.
وأمـا شريـح ابـن هانـئ الحـارثي فـكان يقـول: مـا شـهدت. ولقـد بلغنـي أن كتبـت شـهادتي فأكدبتـه ولمتـه.
فهـل يجيـز الخلـق الكريـم هـادة الـزور ؟؟وهـل يستسـيغها الإسـلام يهـون الأمـر. عـلى فظاعتـه لـو كان فاعلـه مـن عامـة المسـلمين.فكيف بـه وهـو أمـير مـن أمرائهـم !!
وفي هـذه الشـهادة تزويـر مضاعـف: فقـد لفقـت صيغتهـا بمجموعهـا كـما لفقـت شـهادة مـن لم يكـن حـاضرا أثنـاء التلفيـق، وقـد لفـق تلـك الشـهادة حاكـم يزعـم أنـه يحكـم باسـم – خليفـة المسـلمين- و-أمـير المؤمنـين- الـذي ينـوب عـن رسـول اللـه صل اللـه عليـه وسـلم.

أمـا الشـهود ففـي مقدمتهـم كـما يلاحـظ القـارئ: أبنـاء رجـال يعتبرهـم كثـير مـن المسـلمين من خيـار صحابـة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، وقـد قـدم بعضهـم شـهادته الكاذبـة. وأبـوه مـازال حيـا، ولم يمـض عـلى وفـاة الرسـول نصـف قـرن ، فأبـو بـردة بـن أبي مـوسى الأشـعري بطـل التحكيـم الـذي خلـع معاويـة يعتـبر معاويـة الـذي خلعـه أبـوه – أمـير المؤمنين-واسـحاق ومـوسى، واسـماعيل أبنـاء طلحـة والمنـذر بـن الزبـير يشـهدون عـلى حجـر أنـه خلـع الطاعـة وفـارق الجماعـة وجمـع إليـه الجمـوع يدعوهـم إلى نكـث البيعـة وخلـع { أمـير المؤمنـين}. معاويـة ابـن ابي سـفيان.

وقـد نـسي السـادة : اسـحاق وأخـوه موقـف أبيهـم طلحـة مـن إمـام زمانـه ونكثـه البيعـة وخروجـه إلى البـصرة مـع جمـل السـيدة عائشـة أم المؤمنـين رضي اللـه عنهـا.

كـما نـسي المنـذر موقـف أبيـه الزبـير. وهـذا مـن المفارقـات التاريـخ الإسـلامي المملـوء بالمفارقـات... [1]

[1] صراع الأمويين ومبادئ الإسلام –نوري جعفر –ص 53

فقهاء السلطان:

يتحـدث الدكتـور عمـر الشـبراوى أسـتاذ التاريـخ الإسـلامى بكليـة التربيـة جامعـة المنصـورة عـن تمـرد فقهـاء أهـل السـنة عـلى الخلافـة الأمويـة السـنية.

ويـروى الدكتـور عمـر الشـبراوى الأحـداث: شـكل الديـن دعامـة أساسـية لإضفـاء شرعيـة حقيقيـة عـلى قيـام الدولـة فى مختلـف عصـور الإسـلام ولم يحـدث تعـارض حقيقـى بـين الديـن كأسـاس جوهـرى لقيـام الدولـة وبـين طابعهـا العـام فى العهـد الراشـدى وإنمـا ظهـر ذلـك بجـلاء فى عهـد الأمويـين حيـث تأسسـت دولتهـم وفـق دعائـم تخطـت الموروثـات الإسـلامية واسـتندت فى قيامهـا عـلى الوراثـة والقـوة والاسـتبداد والاسـتئثار السـياسى والاقتصـادى للسـلطة الأمويـة الحاكمـة وحلفائهـا الطبقيـين والقبليـين دون باقـى عامـة المسـلمين، مـما جعـل كثـيرا مـن المسـلمين يعـدون ذلـك خروجـا عـن الأصـول الدينيـة للإسـلام ومـن ثـم إضعـاف شرعيتهـا الدينيـة مـما سـبب مأزقـا حرجـا للأمويـين طـوال عهدهـم.

وقـد تبلـور وتنامـى دور هـؤلاء الفقهـاء مـن خـلال الـدور الـذى لعبـه الديـن فى حيـاة النـاس فى تلـك الفـترة وتداخلـه فى شـتى مناحـى الحيـاة، فالفقهـاء قامـوا بتبعـات قسـمة المواريـث الشرعيـة بـين النـاس وكتابـة الوثائـق لهـم؛ كـما عمـل بعضهـم بتدريـس علـوم القـرآن والحديـث فضـلا عـن مدارسـة القصـص الدينيـة للنـاس فى المسـاجد.

واسـتنادا إلى تلـك المكانـة المتفـردة التـى كان عليهـا الفقهـاء، قـام بعضهـم بـدور مؤثـر فى الحيـاة العامـة كالتوسـط لـدى الخلفـاء الأمويـين لرفـع المظـالم عـن المسـلمين أو إجابـة مطالبهـم أو التنديـد بشـجاعة نـادرة بمثالـب ومظـالم الخلفـاء الأمويـين.

وقـد حرصـت السـلطة الأمويـة عـلى اسـتقطاب هـؤلاء الفقهـاء إلى جانبهـا لخطـورة دورهـم عـن طريـق بـذل الأمـوال لهـم أو إجابـة مطالبهـم أو توليهـم مناصـب رفيعـة الشـأن مثـل الافتـاء أو القضـاء أو الدواويـن أو ولايـة الأقاليـم، وحققـت السـلطة فى هـذا الصـدد نجاحـا جزئيـا، فاسـتخدمت هـؤلاء (فقهـاء السـلطة) فى محاولـة لإضفـاء الشرعيـة عـلى كيانهـا السـياسى.

لكـن الكتلـة الغالبـة مـن الفقهـاء رفضـت تمامـا أشـكال التعـاون مـع الدولـة الأمويـة التـى تجعلهـم يخضعـون فى النهايـة لسـلطتها خاصـة المـوالى «المسـلمين مـن غـير العـرب «الذيـن أضـيروا جـراء السياسـات الأمويـة المتسـمة بالظلـم والعنـف والاسـتعلاء تجاههـم، ولم يقتـصر موقـف المعارضـة عـلى فقهـاء المـوالى، بـل شـاركهم بقـوة فقهـاء مـن الأنصـار وقريـش واليمامـة «وسـط الجزيـرة العربيـة» واليمـن.

وعلى الرغم من هذا الموقف المعارض لأشكال التعاون مع السلطة الأموية فإنهم سارعوا بالالتفاف حول شخص عمر بن عبدالعزيز الذى عرف بالصلاح والتقوى واتسم عهده بطابع إصلاحى، يسعى من خلاله إلى إعادة الإسلام إلى سيادته الأولى من العدل والإنصاف والمساواة بين الرعية.

وتراوح موقف الفقهاء معظم زمن العصر الأموى بين نبذ التقرب من السلطة الأموية كما كان يدعو إلى ذلك صراحة طاووس بن كيسان الذى كان يقول: «لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه وجعل عليها حجابه ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة» وبين التنديد بشدة بموقف الفقهاء الذين مالوا إلى السلطة الأموية، فأبوحازم الفقيه المشهور قد وجه نقدا لاذعا للفقيه الزهرى الذى كانت له صلات حميمة بالخلفاء الأمويين أمثال عبدالملك بن مروان ويزيد بن عبدالملك ثم أخيه هشام حيث اتخذه الأمويون ستارا لارتكاب مظالمهم وجعلوه كما يقول له أبوحازم: «قطبا تدور عليه رحا باطلهم..

وسلما إلى ضلالتهم يدخلون الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال»؛ كمان كان سعيد بن المسيب يتهكم من موقف أبي هريرة من السلطة الأموية فيقول: «كان أبوهريرة إذا أعطاه معاوية سكت فإذا أمسك عنه تكلم» كما جاء فى كتاب سير أعلام النبلاء: ج2: ص442 للإمام الذهبى[1].

[1] عمرو الشبراوي - الدولة الأموية استخدمت «فقهاء السلطة» لإضفاء الشرعية على كيانها السياسى

الحالة الإقتصادية والإجتماعية في العصر الأموي

كانت قصور كل الخلفاء الأمويين في دمشق (عد عمر بن عبد العزيز) مزدانة الجدران بالفسيفساء، وأعمدتها من رخام مذهب، وسقوفها مذهبة، مرصعة بالجوهر وبساتينهابها نافورات، تحيط بها أزهار عطرة، وأشجار برتقال وليمون، والمياه تتدفق في جداول بحدائقها الغناء، خلال أشجار ظليلة وريفة، تتسلل إلى القصور من كل الأنحاء، وداخل كل قصر كانت أفنية مستطيلة، تحيط بها أروقة من الأعمدة، أراضيها من الرخام يستعمل قاعة للاستقبال في الصيف، وقبالة كل باب كوة ونافذة، مزخرفتان بأعمدة الرخام، وفي البهو الكبير بقصر الخلافة، كان الخليفة الأموي يجلس، على يمينه أمراء البيت المالك، وعلى يساره رجال الدولة وأعيان البلاد، وأمامه رسل الملوك ورؤساء الطوائف والشعراء المداحون، والفقهاء الواصلون، جاهزون للجدال والخلاف وحيل الفقهاء يخرجون بها للناس من التحريم إلى التحليل، ومن المحظور إلى المباح.

وبعد عباءات الصوف البدوية الخشنة، المرقعة بالأديم (الجلد)، وبعد القرب المعلقة على الأكتاف، في الأسفار القصيرة والطويلة، وبعد الأقبية المشقوقة الوسط، تحت العباءات والمربوطة بحزام من الجلد، صارت هذه العباءات من أصواف الأمصار الناعمة وصارت الأقبية من حرير لم يبحه الإسلام للرجال، وصارت القرب تحملها الإبل، والخدم والبغال.

ولم يعرف عهد عمر بن الخطاب، أحد خلفاء الشورى حفيدا مثل الحر بن يوسف ، حفيد مروان بن الحكم وكان والد يوسف هذا واليا على الموصل، وكان لهذا الحفيد خانات (فنادق) يملكها بالموصل، تعمل لحسابه، وكان له قصر منيف بالموصل، من الرخام والمرمر ، وقد شقت له قناة خاصة من النهر، تمد حدائق القصر بالمياه.

وقد بلغت تركة معاوية ابن أبي سفيان الخاصة، حين وفاته رقما مذهلا هو رقم بيت المال الخلافي نفسه، فلم يكن ثمة فرق بين مال بيت المال العام، ومال الخليفة الخاص. وللخروج من هذا الحرج، وحتى لا يترك بيت المال خاويا، أوصى معاوية بنصف ماله إلى بيت المال، ولا يدري أحد هل نفد يزيد هذه الوصية بعد وفاة معاوية أم لا.

واستصلح معاوية لنفسه، وبمال بيت المال ، أرضا بالبطائح بين البصرة والكوفة، استصلحها له مولاه عبد الله بن دراج، واليه على العراق، ولقد جعل معاوية أرض مصر طعمة(لقمة خاصة) لعمرو بن العاص، مدة ولايته الثانية على مصر،(خمس سنوات) مكافأة له لاسترداده مصر، من التبعية لعلي بالكوفة، إلى تبعية معاوية بدمشق. يأخذ عمرو خراجها وجزيتها وعشورها لنفسه،ينفق منها ما يقبل أن ينفقه على الأجناد ومصالح أهل مصر، ويدخر منها ما يريده لنفسه، ولا يعطي لبيت المال في دمشق من هذا العائد كله أي شيء.

ومثل معاوية فعل من بعده مروان ابن الحكم، حين أقطع لأبنه عبد العزيز بن مروان، الوالي على مصر كلها، تعويضا له عن عدم توليته للعهد بعد أخيه عبد الملك، ودامت هذه الإقطاعية لذلك الوالي عشرين سنة، في عهده وفي عهد إخوته الخلفاء من بعده :(عبد الملك، والوليد، وسليمان).

وكان الإسلام قد أبطل هدايا أعياد النوروز والمهرجان الفارسية،التي كان الشعب الفارسي يجمعها ويقدمها لولاة أكاسرة الفرس على أقاليم فارس، ولكن معاوية أعاد هذه السنة الفارسية بالأمر الخلافي كي يغتني ولاته على فارس بالأمر الخلافي، فكان أهل فارس يهدون الهدايا إلى عامله على الخراج عبد الله بن دراج، وكان نصيب معاوية من هذه الهدايا في السنة عشرة ملايين درهم، تصل إليه في الشهر السابع من السنة الفارسية، شهر مهرماه. كذلك رفع معاوية الجزية على أهل مصر خمسين في المئة ، بدعوى أن مصر فتحت عنوة لا صلحا، وفرض على من أسلم من أهل مصر، أن يستمروا في دفع الجزية بعد إسلامهم، فكان هناك مسلمون عرب في الدولة الأموية(من الدرجة الأولى في المواطنة) لا يدفعون جزية، ومسلمون غير عرب(من الدرجة الثانية في المواطنة) يدفعون الجزية، وتزاد عليهم عما سنه عمر بن الخطاب.

ومن بعد معاوية غير عبد الملك نظام الجزية على أهل الجزيرة والشام، فبعد أن كانت دينارا في عهد عمر، وديناريين في عهد عثمان، وثلاثة دنانير في عهد معاوية، صارت أربعة دنانير،هي كل مكان يمكن لفقير أن يدخره في عام، وسوى في هذا الرفع بين الأغنياء والفقراء، ولم تعد الجزية إلى ما كانت عليه إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، ثم عادت من بعده إلى ما كانت عليه، للإبقاء على ثراء الخلفاء، ومال الخلفاء في بيت المال، في العهد الأموي.

وفي عهد بني أمي، ظهرت ظواهر اقتصادية عجيبة هي:

الإلجاء، الإيغار، التقبل، فضلا عن الصوافي (أي الإقطاع) التي ظهرت في عهد عثمان.

فقد كان المزارع يلجئ أرضه إلى أمير أو غني قوي يحتمي به، ويكتب أرضه باسمه ويقوم المزارع بدفع خراجها الميسر بهذا الإلجاء، وتكون النتيجة دائما هي أيلولة هذه الأرض إلى من كتبت الأرض باسمه فعل ذلك الناس مع مسلمة بن عبد الملك بالبطائح بالعراق، وفعله أهل مراغة في أذربيجان مع مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين وفعله العجم في قرى أذربيجان القواد العرب في أذربيجان.وكان نظام الإلجاء هذا، قبل الإسلام نظاما للحماية فارسيا وروميا، في مناطق الحدود.

ونظام الإيغار كانت له صور، منها أن يؤدي أخذ الأرض من الخليفة(وهو دائما من أتباع الخليفة) الخراج مباشرة إلى الخليفة، فرارا من العمال، ومنها يعفى التابع من أداء أي خراج عن الأرض الممنوحة لهمن الخليفة.

ونظام التقبل يعني أن يعطى أخذ الأرض الخليفة مباشرة قدرا معلوما من المال يدفعه، فيستفيد السلطان تعجيل المال مقدما، ويأخذ المستفيد الفرق بين ما دفعه، وما يحصله من زارعي الأرض(نظام الالتزام). ولقد تصارع الأتباع في الحصول على شرف هذا الالتزام،فراحوا يزايدون على بعضهم البعض، في مزاد عام عاما بعد عام، والمستفيد الأول هو الخليفة، والمضار الأول هم المزارعون، وهو نظام غير شرعي في الإسلام، ففيه فساد في الأرض، وهلاك للحرث والنسل ودفع المضارين للفرار من زراعة الأرض[1] .

[1] سليمان فياض –الوجه الآخر للخلافة الإسلامية- ص83

الــــخـــاتـــمــــة

بعـد هـذه الجولـة القصـيرة في تاريـخ دولـة بنـو أميـة، وتسـليط الضـوء عـلى أثـر السـلطة عـلى نفوسـهم وطريقـة وصولهـم وتثبيـت أركان ملكهـم لا يسـعنا إلا أن نقـول أن : العلمانيـة السـاذجة الغـير المكتملـة وجـدت ونمـت وترعرعـت في ديـار الإسـلام والمسـلمين وليـس كـما يزعـم الكتـاب العـرب الذيـن ردوهـا إلى أوربـا مـن حيـث الموقـع الجغـرافي وإلى العصـور الوسـطى مـن حيـث الإطـار الزمـاني، فبنـو أميـة هـم أول مـن مـارس العلمانيـة مـن دون أن يقعـدوا لهـا ومـن دون أن يصرحـوا بذلـك فالخليفـة الوحيـد إن جـاز تسـميته بالخليفـة –عبـد الملـك ابـن مـروان- هـو الـذي صرح بهـا ففصـل بـين الديـن والدولـة في مقولتـه التـي أسـلفنا ذكرهـا، وإن كانـت مقولتـه هـذه مدسوسـة عليـه، كـما يحـب البعـض القـول، فـإن فملامحهـا وأثارهـا واضحـة في تصرفـات مـن سـبقه ومـن تبعـه مـن ملـوك بنـي أميـة عـدا عمـر بـن عبـد العزيـز الـذي اكتفـت كتـب التاريـخ مـن الفريقـين –السـنة والشـيعة- بالثنـاء عليـه.

فلـو أسـقطنا مـا تفضـل بـه سـفر الحـولي في كتابـه { العلمانيـة}، وغالـب بـن عـلي عواجـي في كتابـه{ المذاهـب الفكريـة المعـاصرة}، وأبـو سـفيان مصطفـى باحـو في كتابـه{ العلمانيـة ومظاهرهـا وأسـبابها} في حديثهـم عـن مظاهـر العلمانيـة في الديـار الإسـلامية عـلى الحقبـة التـي حكـم فيهـا الأمويـون سـنجد كلامهـم يتطابـق إلى حـد كبـير مـع مـكان عليـه الوضـع آنـذاك.

قائمة المصادر والمراجع

عُــــد إلى:

العقـد الفريـد الجـزء الأول والثالـث لإبـن عبـد ربـه /شرح نهـج البلاغـة لأبي الحديـد/ عيـون الأخبـار لابـن قتيبـة الجـزء الأول/ التـاج في أخـلاق الملـوك للجاحـظ/ الطـبري تاريـخ الأمـم والملـوك الأول والجـزء السـادس و السـابع / الإصابـة في تمييـز الصحابـة الجـزء الثالـث / تاريـخ بغـداد الجـزء الأول / الكامـل في التاريـخ لابـن الأثـير الجـزء الثالـث والرابـع / مغـازي الواقـدي / سـير أعـلام النبـلاء للذهبـي/ ابـن عسـاكر تاريـخ دمشـق / النـزاع والتخاصـم للمقريـزي / البدايـة والنهايـة الجـزء الثامـن / الفتنـة الكـبرى طـه حسـين عـلي وبنـوه/ أنسـاب الأشراف الجـزء الخامـس/ الكتـاب والـوزراء للجهشـياري / صراع الأمويـين ومبـادئ الإسـلام لنـوري جعفـر/ الوجـه الأخـر للخلافـة الإسـلامية لسـليمان فياض/محمـد ومعاويـة التاريـخ المجهـول لـــ هشـام حتاتـة.

الفهـرس